شرح العلوم الهرمسية

تأملات في مسائل مختلفة في ضوء الفلسفة الهرمسية

تأليف: زيد نائل العدوان

THE MASTER
LIBRARY

عنوان/ شعار المكتبة التي قامت بنشر الكتاب

- **المقدمة:**

أبدأ اليوم، بعون الله، شرح شيء من العلوم الهرمسية؛ إذ إن العلوم الهرمسية عبارة عن بحر واسع ومحيط شاسع من المعارف والأفكار. والكتاب الذي سأختاره للشرح هو كتاب (متون هرمس: حكمة الفراعنة المفقودة)، وهو يشبه إلى حدٍّ ما كتاب بيوماندريس الإلهي لجون إيفرارد

في الحقيقة، فإن معظم كتب الهرمسيات تتشابه فيما بينها، سواء كان كتاب The Divine Pymander، أو كتاب The Greatest Hermes، أو متون هرمس، أو هرمس مثلث العظمة للويس مينار، أو متون هرمس لبيتر جاندي؛ فكل هذه الكتب متقاربة في مضمونها، ولا تختلف اختلافًا جوهريًا، إذ إنها جميعًا تحتوي على تعاليم هرمس وحكمته.

ولمن لا يعلم، فإن تات هو ابن هرمس، أما أسكليبيوس فيُعد أول طبيب في العالم البشري، أو كما يقال: أول من أوحي إليه بسرّ الطب في العالم الإنساني.

وعلى كل حال، سأبدأ بكتاب (متون هرمس: حكمة الفراعنة المفقودة) من الصفحة 38. وتقول هذه الصفحة :(وعندما تبصّر هرمس في أسرار الخلق.(...

نتوقف هنا قليلًا؛ لأن أسلوبي في الشرح هو أن آخذ كل عبارة على حدة، ثم أشرحها وأسلط الضوء عليها وأتوسع في بيانها. فأنا أميل إلى الشرح المفصل والموسع، ولا أحب الشرح المقتضب.

**يقول هرمس هنا :(وعندما تبصّر هرمس في أسرار الخلق).
كلمة (تبصّر) في حدّ ذاتها تحمل معنى عميقًا؛ فالتبصر ليس مجرد تفكير عابر، ولا خاطر سريع يمر في الذهن، بل هو انكشاف الحقائق للإنسان بعد غيابها، وبعد تفكير طويل وتأمل شديد. فالتبصر هو محاولة معرفة الحقائق الخفية التي لا تظهر بسهولة.**

وعندما نقول إن هرمس تبصّر في أسرار الخلق، فهذا يعني أنه حاول إدراك الحقائق العميقة الكامنة وراء الوجود.

أما هرمس، فهو شخصية معروفة لدى من يتابع هذا الموضوع، ولذلك لا حاجة لإعادة الحديث عنه مطولًا. لكن يمكن القول باختصار إن هرمس كان حكيمًا عاش في العصور القديمة، وقيل إنه عاش في اليونان، أو في مصر، أو في آسيا الصغرى. وقد اختلف الباحثون في تحديد مكانه بدقة. وكان له باع في الفلسفة، وكذلك في التنجيم والخيمياء.

أما عبارة (أسرار الخلق) فهي عبارة مهمة جدًا. فالتبصر غالبًا ما يكون في الأمور الخفية؛ وهذه الأمور قد تكون في العلم، أو الحكمة، أو الأخلاق، لكن أعظمها ما يتعلق بأسرار الخلق.

وذلك لأن هرمس فيلسوف، والفلاسفة عادة ما يتأملون في أسرار الوجود. وهو كذلك حكيم، والحكماء يتأملون في آثار الخلق ويتدبرونها. وقد جاء في القرآن الكريم ما يحث على هذا التدبر، مثل قوله تعالى :(ويتفكرون في خلق السماوات والأرض)، وكذلك قوله تعالى : (وتدبروا يا أولي الألباب)، فالآيات التي تحث على التفكر والتدبر في الكون كثيرة في القرآن الكريم.

وعندما نقول أسرار الخلق فإننا نقصد بذلك قضايا الوجود الكبرى: مثل الله، والكون، والوجود، والعدم، والخير، والشر، وكل المسائل التي حاول الفلاسفة عبر العصور الإجابة عنها. ولا أعني هنا فقط الفلاسفة اليونانيين، بل فلاسفة جميع الحضارات، من الصين إلى أمريكا الشمالية. حتى الشعوب القديمة مثل الهنود الحمر كانت لديهم تصورات فلسفية تظهر في أساطيرهم وميثولوجياتهم.

إن أسرار الخلق تتصل في النهاية بالله سبحانه وتعالى، وما يتفرع عن ذلك من مسائل. فالله هو السر الأعظم، لأنه أصل الوجود ومصدره.

ولكن لماذا يُقال إن الله هو السر الأعظم؟

لأن الله سبحانه وتعالى غيبٌ عن إدراك البشر الكامل، فهو باطن لا تدركه الحواس. صحيح أن من أسمائه الظاهر، وأن الناس يعرفون وجوده من خلال آثاره في الكون، لكن مع ذلك تبقى ذاته فوق إدراك العقول.

فلو سألنا: ما حقيقة الله؟ أو ما كنه ذاته؟ فإن الإنسان يعجز عن إدراك ذلك إدراكًا كاملاً. وقد ناقش المتكلمون المسلمون هذه المسائل، فالأشاعرة مثلًا يؤولون بعض الصفات، بينما يثبتها السلفية على ظاهرها، لكننا لا نريد الدخول هنا في مباحث الصفات.

المقصود أن الله معروف من جهة أفعاله وآثاره في العالم، لكنه غير مدرك الكنه من جهة ذاته، ولذلك يبقى سرًا من أسرار الوجود.

ولهذا جاء التعبير في النص بصيغة (أسرار الخلق) وليس (سر الخلق) فقط، لأن هذه الأسرار متعددة، وتشمل قضايا كثيرة مثل الوجود والكون والأخلاق والخيمياء والنجوم وغير ذلك.

ثم يكمل النص فيقول :(تلقّى الرسالة من الكائن الأعلى).

كلمة (تلقّى) هنا تعني أنه مُنح أو وُهب. وفي ذلك دلالة مهمة، وهي أن الأسرار الكونية لا تُنال بالسعي وحده، بل قد تكون أيضًا هبة أو إلهامًا. صحيح أن كثيرًا من الناس يسعون إلى معرفة أسرار الكون، لكن ليس كل من سعى إليها يصل إليها؛ فقد يفشل بعضهم أو لا يُوفَّق.

أما كلمة (الرسالة) فهي تحمل أكثر من دلالة. فالرسالة عادة تكون موجهة إلى شخص معين بقصد محدد، وهذا يعني أن هرمس قد اختير لتلقي هذه المعرفة. ومن جهة أخرى، فإن الرسالة قد تدل على نوع من التكليف؛ لأن الرسالة ليست مجرد معرفة، بل قد تتضمن مهمة أو مسؤولية.

فإذا أرسل شخص رسالة إلى آخر، فإنه يقصد أن يبلغه شيئًا ذا معنى أو يكلّفه بفهم أمر معين. وكذلك هنا، فإن الرسالة التي تلقاها هرمس قد تكون رسالة معرفة، أو رسالة تكليف، أو الاثنين معًا.

الرسالة هنا لا تعني بالضرورة تكليفًا بعملٍ معين، بل قد يكون المقصود منها مجرد التكليف بمعرفة هذا الشيء .ولذلك فإن كلمة الرسالة نفسها تحمل دلالة مهمة.

أما عبارة (الكائن الأعلى) فلا نريد أن ندخل في متاهات الفلاسفة حول مفاهيم مثل العقل الأول، والفيض، والعلة الأولى؛ فهذه المسائل الفلسفية المعقدة، في رأيي، ليست مفيدة كثيرًا للعقل العملي، وقد تجرّ الإنسان إلى جدالات طويلة لا طائل منها.

ولهذا يمكن ببساطة أن نقول إن الكائن الأعلى هو لقب تشريفي لله سبحانه وتعالى.
ولماذا يُقال إن الله هو الكائن الأعلى؟ الجواب بسيط: لأن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكون، وهو المدبر لأمور هذا الكون، وهو الرحيم بعباده. وهذه أمور تعلمناها منذ الصغر في المدارس والمساجد.

كما أن الله هو الأعلى من جهة العلم والمعرفة؛ فكل علم في الكون صادر عنه سبحانه وتعالى.

ثم يكمل النص فيقول:
(فالمعرفة فقط هي التي يمكن أن تنقذ أولئك الذين يعيشون في الظلام، فعليه أن يصبح المرشد الروحي لكل بني البشر.)

المقصود بالمعرفة هنا ليس المعرفة العادية، مثل المعرفة الفيزيائية أو الكيميائية أو البيولوجية. فهذه المعارف، على أهميتها، قد لا تمنع الإنسان من الوقوع في الظلام الأخلاقي. والدليل على ذلك أن بعض الاكتشافات العلمية استُعملت في تدمير البشرية. فمثلًا،

ارتبط اسم أينشتاين بتطور الأبحاث التي أدت لاحقًا إلى صناعة القنبلة الذرية، وهي سلاح تسبب في موت عدد هائل من البشر.

وكذلك نجد في بعض المختبرات البيولوجية تجارب قاسية وغير أخلاقية تُجرى على الحيوانات. فالعلم المادي وحده لا يضمن بالضرورة السلوك الأخلاقي.

لذلك فإن المعرفة المقصودة في النص هي المعرفة الإلهية؛ المعرفة التي تضيء الطريق للإنسان، وتفتح أمامه آفاق الحكمة، وتنير دربه في الحياة. فالإنسان بطبيعته يحتاج إلى مرشد يرشده في أمور الحياة والأخلاق.

وعندما يقول النص :(فالمعرفة فقط)، فإن المقصود هو المعرفة التي تجمع بين الفهم والعمل؛ أي ليست مجرد معرفة نظرية، بل معرفة عملية تقترن بالسلوك والتطبيق.

ثم يقول :(هي التي يمكن أن تنقذ أولئك الذين يعيشون في الظلام.)

وهنا المقصود بالظلام ليس الظلام الحسي، بل الظلام المعنوي .فهناك كثير من الناس يعيشون في ظلمة الجهل أو سوء الأخلاق. وقد يكون الإنسان مثلًا منشغلًا بصغائر الأمور، أو غارقًا في الشهوات والرغبات المادية التي تقوده إلى الانحطاط.

ومن الأمثلة على ذلك بعض الأشخاص الذين يدمنون الخمر إدمانًا شديدًا حتى ينتهي بهم الأمر في المصحات النفسية. هؤلاء في الحقيقة يدمرون أنفسهم بأيديهم ويعيشون في حالة من الظلام الداخلي.

والوسيلة الوحيدة للنجاة من هذا الظلام هي التمسك بالمعرفة الصحيحة؛ ليس بأي معرفة، بل بالمعرفة الربانية التي مصدرها العالم العلوي. فبدون هذه المعرفة قد يضيع الإنسان ولا يجد الطريق الذي يهديه في حياته.

ثم يقول النص:

(فعليه أن يصبح المرشد الروحي لكل بني البشر.)

كلمة (فعليه) تدل على التكليف، وهذا يؤكد ما ذكرناه سابقًا عند الحديث عن معنى الرسالة؛ فهذه الرسالة لا تتضمن المعرفة فقط، بل تتضمن أيضًا واجبًا ومسؤولية.

فالنص يقول إن من يتبصر في أسرار الخلق ويصل إلى المعرفة الربانية يصبح عليه واجب أن يرشد الآخرين إلى هذا الطريق. أي أن الإنسان الذي يصل إلى الحكمة لا ينبغي له أن يحتفظ بها لنفسه، بل يجب عليه أن يكون عونًا للآخرين، وأن يساعدهم على الوصول إلى الحقيقة.

أما عبارة (المرشد الروحي) فتعني الشخص الذي يرشد غيره إلى الطريق الصحيح.
والإرشاد هنا هو أن يأتي الإنسان إلى الشخص الضائع – أي الذي يعاني من عمى البصيرة – فينير له الطريق، ويعلمه، ويثقفه، ويمنحه المعرفة التي تساعده على الخروج من الظلام.

وقد عبّر الشعراء عن هذا المعنى بقولهم إن الإنسان قد يكون واقعًا في (بئر الدجى)، أي في ظلمة شديدة، فيحتاج إلى من ينتشله منها.

ولهذا يقول النص :(لكل بني البشر)، أي أن من وهبه الله الأسرار الربانية والمعارف الملكوتية يجب عليه أن يرشد جميع الناس، دون تمييز بينهم. فالبشر، على اختلاف أعراقهم وأديانهم، يحتاجون إلى المعرفة الروحية التي تهديهم.

ثم يكمل هرمس قائلًا:

(تعطلت حواسي أثناء تهجدٍ صوفي، لا نصبًا ولا تذمرًا، بل انتباهًا وخلوصًا واعيًا.)

هنا يشير هرمس إلى فكرة مهمة، وهي أن الرغبات المادية والملذات الدنيوية تختفي عند الاتصال بالمصدر الإلهي .فحين يتوجه الإنسان إلى العبادة أو التأمل الروحي بصدق، فإنه ينفصل مؤقتًا عن الانشغال بالدنيا.

فعندما يصلي الإنسان أو يتعبد بإخلاص، فإنه يشعر بحالة من السكون الداخلي، وكأن حواسه الدنيوية قد هدأت. ولهذا يقول هرمس إن حواسه تعطلت أثناء تهجد صوفي.

وكلمة التهجد تعني العبادة العميقة الصادرة من القلب، أي العبادة التي يؤديها الإنسان بإخلاص وخشوع شديدين.

أما استعمال كلمة (صوفي) في النص فلا يعني بالضرورة أن هرمس كان صوفيًا بالمعنى المعروف في الإسلام، رغم أن بعض الباحثين يرون أن التصوف تأثر ببعض الأفكار الهرمسية. وإنما المقصود هنا هو الحالة الروحية العميقة التي يصل فيها الإنسان إلى نوع من الصفاء الداخلي.

وهذه الحالة ترتبط بما يسمى المعرفة القلبية، أي المعرفة التي يدركها الإنسان بالحدس والصفاء الروحي، وليس فقط بالعقل النظري.

المعرفة القلبية هي المعرفة التي تستند إلى الشعور الداخلي للإنسان. فمثلًا، عندما يتعرف الإنسان إلى شخصٍ ما، فإن قلبه إما أن يشعر بالارتياح لهذا الشخص، أو يشعر بالنفور منه. وهذا مثال بسيط على ما يسمى المعرفة القلبية.

فالمعرفة القلبية هي ما يشعر به القلب وما يدركه الفؤاد من حقائق العالم. فحين يقرأ الإنسان – مثلًا – القرآن الكريم ويصل إلى قوله تعالى :*(الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه)*، فإنه قد يشعر بانشراح في صدره وراحة في قلبه. وكذلك الحال عند المسيحي حين يقرأ في العهد الجديد قول المسيح :*(ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله)* ؛ فإن هذه الكلمات قد تبعث في النفس طمأنينة وراحة.

هذا الشعور الداخلي الذي يمنح الإنسان إحساسًا باليقين أو بالسكينة هو ما يسمى المعرفة القلبية.

أما المعرفة العقلية فهي المعرفة المرتبطة بالعلوم الطبيعية مثل الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والرياضيات وسائر العلوم التجريبية. فهي معرفة تقوم على التفكير والتحليل والاستنتاج.

لكن المعرفة القلبية – في نظر كثير من الحكماء – هي المعرفة التي تقود الإنسان إلى إدراك الحقائق العميقة للحياة. فهي معرفة لا تسبب اضطرابًا في النفس، بل تساعد الإنسان على اكتشاف الحقيقة والوصول إلى فهم أعمق للوجود.

وفيما يتعلق بالتصوف، يدّعي بعض الصوفية أنهم أصحاب المعرفة القلبية، لكنني – مع احترامي للمتصوفة – لا أعتقد أن المعرفة القلبية مقصورة عليهم وحدهم. فالمعرفة القلبية ليست حكرًا على التصوف، بل هي موجودة في جميع الأديان؛ لأن كل إنسان يمتلك قلبًا.

لكن المعيار الحقيقي هنا هو :كيف يستعمل الإنسان قلبه؟
هل يستعمله في الخير أم في الشر؟
هل هو قلب يحب الخير ويسعى إلى نفع الناس، قلب رباني رحماني؟ أم هو قلب غارق في الشرور؟

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى :(*كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ*).

ثم يقول هرمس:
(تعطلت حواسي أثناء تهجدٍ صوفي، لا نصبًا ولا تذمرًا.)

وهذه عبارة جميلة جدًا. فمعنى (لا نصبًا ولا تذمرًا) أن الإنسان عندما يؤدي عملًا معينًا قد يشعر بالتعب أو بالملل. فالمحامي عندما يذهب إلى عمله قد يشعر أحيانًا بالتثاقل، والطبيب أثناء إجراء العمليات الجراحية قد يشعر أحيانًا بالإجهاد.

ولهذا يلجأ الإنسان إلى الهوايات من أجل التخفيف من الملل.

لكن هرمس يقول إن حالته الروحية لم تكن كذلك؛ فقد كانت حالة راحة وسكينة .فالتأمل أو العبادة العميقة لا تجلب التعب، بل تمنح الإنسان شعورًا بالطمأنينة.

فمثلًا، عندما يقرأ الإنسان القرآن لفترة طويلة، أو يؤدي صلوات متتابعة بخشوع، فإنه قد يشعر براحة داخلية عميقة، وكأن هموم الحياة قد خفّت عنه.

ثم يقول النص:
(بل انتباهًا وخلوصًا واعيًا.)

أي أن هرمس كان في حالة من الانتباه الكامل والصفاء الداخلي .فقد كان مشدودًا إلى معرفة أسرار الخلق وإلى إدراك الحقائق الإلهية، ولذلك لم يكن يشعر بأي ضجر من هذه الحالة الروحية.

فالانتباه والخلوص والوعي تعني أن الإنسان يكون منجذبًا إلى هذه المعرفة، يسعى إليها بكل قوته، وكأنها تستحوذ على عقله وتشدّ انتباهه.

وهذه من خصائص المعرفة الربانية؛ إذ إنها تجذب عقل الإنسان وتأخذ بلبّه.

)وهنا أود التنبيه إلى أن الأصوات التي قد تُسمع في الخلفية ليست أصوات انفجارات، بل هي أصوات البرق والرعد، حتى لا يظن المستمع غير ذلك.(

ثم يقول النص:
(أطير مع أفكاري متحررًا من جسدي.)

وهنا يشير هرمس إلى حالة من التجربة الروحية العميقة .والمقصود بها الحالة التي يمر بها العارف بالحقيقة. ولا أقصد هنا بالعرفاني المتصوفة المسلمين فقط، بل أقصد كل إنسان يسعى إلى الحكمة ويغوص في أعماق الحقائق الروحية.

فالمعرفة الروحية يمكن أن تُطلب من أي مصدر من مصادر الحكمة، وكأن الإنسان يغرف من بحر واسع من العلوم الرحمانية.

وعندما يقول هرمس إنه يطير مع أفكاره متحررًا من جسده، فإنه يصف حالة من السمو الروحي، حيث يشعر الإنسان وكأنه تجاوز حدود الجسد وانشغل بعالم الروح.

وهذه الحالة قد تقترن بشعور من الخشوع والوجل أمام الحضرة الإلهية.

ثم يقول هرمس:

(وبينما كنت محلّقًا نادتني باسمي كينونة هائلة بلا حدود.)

أي أنه كان يحلق بأفكاره في العوالم الروحية والنورانية، ثم سمع نداءً من كيان عظيم يقول له:

(يا هرمس، عمّ تبحث؟)

وهذا السؤال مهم جدًا، لأنه يشير إلى أن هرمس كان دائم السعي وراء الحقيقة. فالحكيم الحقيقي هو الذي يبحث باستمرار عن الحقيقة ولا يكتفي بما وصل إليه.

فالسؤال (عمّ تبحث؟) يعني: ما الهدف من بحثك؟ وما الذي تسعى إلى معرفته؟ ولماذا تقضي ساعات طويلة في التأمل والعبادة والبحث؟

فأجاب هرمس بالسؤال:

(من أنت؟)

فقالت تلك الكينونة:

(أنا المرشد، أنا العقل السامي، أنا أفكار الإله الواحد.)

وقد ورد في النص لفظ (أتوم) بدل كلمة الله؛ لأن أتوم هو الإله في الديانة المصرية القديمة، وكان المصريون القدماء يرونه أصل الآلهة.

ثم قال الكيان:

(أنا المرشد.)

وهذا يدل على أن هرمس قد مُنح نوعًا من الهداية والمعرفة الربانية، وكأن الله قد أرسل له مرشدًا يدلّه على طريق الحقيقة.

لكن يبقى السؤال المهم الذي طرحه الكيان في البداية:

(يا هرمس، عمّ تبحث؟)

وهذا السؤال في الحقيقة سؤال عميق، لأنه يلخص جوهر السعي الفلسفي والروحي عند الإنسان؛ فالباحث عن الحكمة لا بد أن يحدد أولًا ما الذي يبحث عنه، ولماذا يسعى إلى المعرفة.

بسم الله الرحمن الرحيم.

إن رحلة الحكيم في هذا العالم هي في حقيقتها رحلة بحث واكتشاف، بل يمكن القول إنها مغامرة معرفية يعيشها الإنسان طوال حياته. فالحكيم لا يعيش حياته على نحوٍ عادي، بل يقضيها في التأمل والبحث عن الحقيقة. ولذلك فإن السؤال الذي وُجِّه إلى هرمس :(يا هرمس، عمّ تبحث؟) هو سؤال عميق للغاية؛ لأنه في الحقيقة موجَّه إلى كل حكيم وكل باحث عن المعرفة.

فمعنى هذا السؤال هو: أيها الحكيم، ما هدفك من القراءة؟ وما غاية دراستك طوال هذه السنين؟ وما الذي تسعى إلى معرفته؟ والجواب الذي قد يقدمه الحكيم عن هذا السؤال هو أن غاية المعرفة في النهاية هي الوصول إلى الله الواحد الأحد؛ أي الوصول إلى الخالق الذي عُبِّر عنه بأسماء عديدة عبر الحضارات المختلفة، مثل: يهوه، وأهورا مزدا، وأتمان، وكذلك باسم الله أو الأب في الديانات الأخرى.

إذن فالأسماء تختلف، لكن المقصود في النهاية هو الذات الإلهية الواحدة .ومن هنا فإن الهدف الحقيقي للمعرفة هو الوصول إلى الله، سواء تحقق ذلك في مرحلة مبكرة من حياة الإنسان أو بعد سنوات طويلة من البحث والتأمل.

والسبب في ذلك أن الله سبحانه وتعالى هو – إن صح التعبير – قدس الأقداس، وهو السر الأعظم في هذا الوجود. فهو الأمر الأكبر الذي يستحق أن يكون مدار البحث والتفكير. ولذلك فإن السعي إلى معرفة الله ومحاولة الوصول إليه يعدّ غاية كل حكيم وكل فيلسوف وكل مؤمن.

ومع ذلك، فأنا لا أقصد هنا الطريقة الفلسفية المعقدة التي صاغها بعض الفلاسفة، مثل ابن سينا أو الملا صدرا أو السهروردي. فمع أن هؤلاء فلاسفة كبار، فإنني أشعر أحيانًا بأنهم قد عقّدوا المسألة الإلهية أكثر مما ينبغي .صحيح أنني أعترف بأن الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام ليسا من تخصصي، لكنني أرى أن بعض هذه المناقشات الفلسفية قد ابتعدت عن البساطة التي ينبغي أن تُفهم بها العلاقة بين الإنسان وربه.

وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى :(وما قدروا الله حق قدره)، وهو تعبير يدل على أن إدراك عظمة الله أمر يتجاوز كثيرًا من الجدل النظري.

ولهذا فإن البحث عن الله ومحاولة الوصول إليه هو الأساس الذي يقوم عليه سعي كل فيلسوف وحكيم وعالم ومؤمن. ويمكن أن نضع قاعدة عامة تقول إن الحكمة الحقيقية ترتبط بالإيمان؛ إذ إن الحكيم ينظر إلى الأمور نظرة باطنية عميقة، لا تقتصر على الظواهر فقط.

أما الإنسان الملحد فقد يكون ذكيًا أو متفوقًا في بعض العلوم، لكنه – في نظر كثير من الحكماء – قد يظل محدودًا في نظرته إذا اقتصر على ما تدركه الحواس فقط. فكثير من الملاحدة يركزون على الظواهر المادية وما يمكن قياسه بالأدوات العلمية أو الأجهزة التكنولوجية الحديثة، لكنهم لا يمنحون القلب أو البعد الروحي دورًا في المعرفة.

ثم يعود النص إلى قول الكينونة العليا:

(أنا المرشد، أنا العقل السامي، أنا أفكار أتوم الإله الواحد.)

فقولها (أنا المرشد) يدل على أن الله سبحانه وتعالى لا يترك من يطلب الهداية دون أن يرشده. فمن يطلب الله بصدق فإن الله يهديه إلى الطريق. وباب الله – كما يقال – مفتوح لكل من يطرق هذا الباب.

وقد يبدو في هذا الكلام شيء من الصبغة الدينية، لكن لا بأس في ذلك؛ لأن الدين يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالفلسفة والبحث في الإلهيات. بل إن كثيرًا من الحكماء يرون أنه لا يمكن فصل الفلسفة عن التأمل في المسائل الإلهية.

أما قول الكينونة (أنا العقل السامي) فلا ينبغي فهمه بالمعنى الفلسفي المعقد الذي تحدث عنه بعض الفلاسفة المشائيين أو اليونانيين عندما تكلموا عن العقل الأول أو الفيض أو العلة الأولى. فهذه المصطلحات قد تبدو معقدة ولا تمنح الإنسان الطمأنينة الروحية.

وإنما المقصود هنا – ببساطة – أن الله هو مصدر الخير كله، وأن إرادته تتجه دائمًا إلى الخير. ولهذا فإن الإنسان إذا طلب الله بإخلاص فإنه سيجد الهداية والطمأنينة.

ثم تقول الكينونة:

(أنا أفكار أتوم الإله الواحد.)

وهنا يظهر أن الكينونة التي تخاطب هرمس تعرّف نفسها بأنها أفكار الإله الواحد. ويبدو أن المقصود أن الله يخاطب هرمس من خلال وحي أو إلهام، وكأن الخطاب الإلهي يصل إليه عبر أفكار أو معانٍ تُلقى في ذهنه.

ثم يضيف النص:

(أنا معك دائمًا في كل مكان.)

والمقصود هنا ليس أن الله موجود في كل مكان بالمعنى الحرفي، لأن هذا قد يقود إلى عقائد مثل الحلول أو الاتحاد، وهي أفكار رفضها كثير من علماء الدين. وإنما المقصود أن الله يرعى عبده ويهديه ويعينه حيثما كان.

وقد ورد في الحديث النبوي ما يشير إلى هذا المعنى، حيث يُذكر أن العبد إذا تقرّب إلى الله بالنوافل فإن الله يعينه ويهديه في أفعاله وأقواله.

إذن فمعنى قول الكينونة (أنا معك دائمًا في كل مكان) هو أن الله لا يترك عبده الذي يسعى إلى معرفته، بل يرشده ويكشف له شيئًا من حقائق الوجود، فيزداد علمًا وثقافة وفهمًا للحياة.

وإلى هنا نكتفي بهذا القدر، ونكمل في المقالات اللاحقة.

المقالة 2 من شرح العلوم الهرمسية

بسم الله الرحمن الرحيم. نبتدئ اليوم إكمال شرح الفلسفة الهرمسية، وقد كنا في الدرس السابق نتحدث عن كتاب متون هرمس: حكمة الفراعنة المفقودة، ووصلنا تقريبًا إلى الصفحة الثامنة والثلاثين. وقد تناولنا الهرمسية سابقًا بشيء من التفصيل، أما اليوم فنكمل ما بدأناه.

لكن قبل الشروع في متابعة الشرح، أود أن أتوقف عند مسألة مهمة، وهي مكانة هرمس في الديانات المختلفة، وهل كان نبيًا أم لا. فمكانة هرمس عالية في كثير من التقاليد الدينية والروحية. فعند اليهود يُنسب إلى شخصية أخنوخ، وعند الصابئة يُعرف باسم بوثسيف، وعند الفرس يُذكر باسم أبج نهد، وعند اليونانيين يُعرف باسم هرمس، وعند المصريين باسم تحوت، بينما يرى بعض المسلمين أنه هو نفسه النبي إدريس عليه السلام.

وعندما أتحدث عن هذه الديانات، فأنا أقصد غالبًا الفرق الباطنية التي ظهرت داخلها؛ إذ إن هذه الفرق هي التي اعتبرت هرمس نبيًا أو قديسًا على الأقل. أما الفرق الظاهرية –وأعني بها تلك التي تأخذ بظاهر النصوص الدينية – فإنها في الغالب لم تعتبر هرمس نبيًا ولا قديسًا.

وعلى كل حال، فإن مكانة هرمس في التراث الديني والفلسفي تبقى مكانة عالية. فهو عند كثير من الفرق الباطنية نبي أو صاحب وحي. لكن يبقى السؤال :هل كان فعلًا نبيًا؟
من وجهة نظري، فإن من يأتي بمثل هذه التعاليم لا بد أن يكون على الأقل رجلًا متدينًا، ورعًا، وتقيًا .أما إثبات النبوة فمسألة أخرى؛ إذ إن النبوة لا تثبت إلا بنص صريح في كتاب ديني معتمد. فعلى سبيل المثال، إذا أردنا معرفة ما إذا كان شخص ما نبيًا أم لا، فإننا نرجع إلى الكتب المقدسة مثل القرآن أو الإنجيل أو غيرها، ومن خلالها نتحقق من ذلك.

وبالنسبة لهرمس، فإن اسمه بصيغته هذه لم يرد نبيًا في الإسلام ولا في المسيحية ولا في اليهودية، وربما ورد بشكل ما في بعض التقاليد الصابئية. ومع ذلك، فإن بعض الأنبياء الذين وردت أسماؤهم في هذه الديانات تتشابه صفاتهم مع صفات هرمس .ولهذا السبب اعتبرت بعض الفرق الباطنية أن هرمس هو نفسه النبي إدريس أو أخنوخ، ولكن باسم مختلف.

وبالحق يمكن القول إنه ربما كان نبيًا وربما كان قديسًا، لكن الأمر الذي أراه مؤكدًا هو أنه كان رجلًا حكيمًا متدينًا آتاه الله علمًا وحكمة.

ومن ناحية أخرى، فإن موطن هرمس نفسه غير معروف على وجه الدقة. لكن يمكن القول إن اسمه يبدو إما مصريًا أو يونانيًا؛ لأن هاتين الحضارتين كانتا تضيفان اللاحقة الصوتية "ـس" في نهاية الأسماء، مثل: أوزيريس، إيزيس، ديمقريطس، وأرسطوطاليس. لذلك قد يكون الاسم يوناني الصيغة، وربما كان يشير إلى شخصية أقدم عاشت في إحدى الحضارات القديمة، لكن الحضارات اللاحقة أطلقت عليها اسمًا مختلفًا.

فمن الممكن أن تكون الشخصية الأصلية التي نسبت إليها هذه التعاليم ليست هرمس بهذا الاسم تحديدًا، بل شخصًا آخر كان له اسم مختلف، ثم أطلقت عليه الحضارات المختلفة اسم هرمس.

أما الهرمسية نفسها، فهي تقليد واسع ومتعدد الفروع. وإذا أردنا تعريفها تعريفًا مختصرًا، فيمكن القول إنها:
مجموعة من التعاليم الحكَمية أو الفلسفية التي تقوم على مبادئ كونية، وتبحث في أسرار الكون والوجود.

وهذا التعريف أراه مناسبًا لتنقية الهرمسية من كثير من الشوائب التي أُلصقت بها عبر العصور. فقد أُدخلت في الهرمسية علوم مثل التنجيم والسحر والطلاسم والأوفاق وعلم الحروف .وأنا أرى أن هذه العلوم لم يكن هرمس يمارسها؛ لأن الحكيم عادة يبتعد عن مثل هذه الأمور، فهي أقرب إلى الممارسات الروحانية أو السحرية منها إلى الحكمة الفلسفية.

فالعلوم التي تتناول أسرار الكون ومبادئ الوجود هي علوم تأملية عقلية تقوم على النظر والتدبر في أحوال الكون، وليست مجموعة من الطلاسم أو محاولات لمعرفة المستقبل أو التأثير في الناس بطرق سحرية.

لكن بما أن الفرق الباطنية هي التي تبنّت التراث الهرمسي، ولأن هذه الفرق كانت تمارس التنجيم والطلاسم والأوفاق، فقد أدخلت هذه العلوم ضمن الهرمسية. ومع ذلك، فأنا أرى أن هرمس نفسه – إن كان فعلًا صاحب هذه التعاليم – لم يكن ليقبل بهذه الممارسات.

فمن الصعب أن ننسب إلى حكيمٍ عظيمٍ تعاليمَ في الحكمة والتأمل في الكون، ثم ننسب إليه في الوقت نفسه تعاليم في السحر والطلاسم، مثل التفريق بين الزوجين أو ربط الأزواج أو الاختفاء عن الأنظار أو غير ذلك من الممارسات السحرية. فهذه الأمور لا تنسجم مع طبيعة الحكمة الفلسفية.

ومن الأمور التي ينبغي التنبيه عليها أيضًا أن بعض الناس يرفضون الهرمسية رفضًا تامًا، مع أن كثيرًا من مبادئها حاضر في عمق الأديان .فالنصوص الهرمسية تقوم على التأمل

والحكمة والنظر في بواطن الأمور، وليس مجرد التمسك بظاهرها. وهذه المعاني نجدها حاضرة في كثير من التقاليد الدينية.

فالأديان في جوهرها تدعو إلى التأمل والتدبر في خلق الله والبحث في المعاني الباطنة للوجود .ولذلك لا أرى سببًا قويًا لرفض التعاليم الهرمسية من حيث المبدأ، خاصة إذا فهمت على أنها تعاليم فلسفية تأملية لا تعارض جوهر الدين.

كما أن كثيرًا من المفاهيم الفلسفية التي دخلت إلى الفكر الإسلامي جاءت في الأصل من الفلسفة اليونانية. فنحن نعلم أن المنطق وعلم الكلام في التراث الإسلامي تأثرا بمنطق أرسطو، وأن مفاهيم مثل الجوهر والعرض والحركة والسكون استُعملت في كتب المتكلمين. والفلسفة اليونانية نفسها تأثرت في بعض جذورها بالتقاليد الهرمسية القديمة.

لهذا السبب، لا أرى سببًا قويًا لرفض المبادئ الهرمسية إذا فُهمت بوصفها مبادئ فلسفية عامة لا تتعارض مع الدين.

وبعد هذه المقدمة نعود إلى النص الذي كنا عنده في الكتاب، حيث يقول النص:

"اعرف مكنون قلبك؛ فقلبك هو صانع أسئلتك الواعية، وأنا المهيئ للإجابة عنها".

وهنا يظهر أن النص يخاطب الإنسان داعيًا إياه إلى معرفة ذاته والبحث في أعماق قلبه، لأن القلب – في الرؤية الهرمسية – هو مصدر الأسئلة الوجودية الكبرى، بينما تأتي الحكمة أو الروح العليا لتجيب عن هذه الأسئلة وتكشف للإنسان حقائق الوجود.

يبدأ النص بقول :(اعرف مكنون قلبك)، وهذه – في نظر هرمس – نتيجة طبيعية؛ إذ إن الروح العليا تعرف ما في قلبه. وليس المقصود هنا مكنون القلب المرتبط بالرغبات الدنيوية أو بالملذات والشهوات، بل المقصود هو مكنون قلب الحكيم المتدبر في أمور الكون. فهرمس – بحسب الصورة التي يقدمها النص – رجل حكيم يتأمل في الوجود ويتدبر في أسراره.

ولذلك فإن معرفة مكنون قلبه تعني أن الروح العليا ستجيبه عن الأسئلة التي تنبع من هذا القلب المتطلع إلى الحقيقة.

ثم يأتي في النص :(صانع أنا لأسئلتك الواعية، ومهيئ أنا الإجابة عليها) .وهذه عبارة ذات دلالة مهمة؛ إذ يبدو فيها أن الروح العليا تخاطب هرمس لتبين له أن كل شيء مقدر، وأن حتى الأسئلة التي يطرحها الإنسان ليست خارجة عن نطاق الإرادة الإلهية. فحتى الأسئلة التي يسألها هرمس، والرغبات المعرفية التي تدفعه إلى البحث، هي أمور قد أودعها الله فيه. فالله سبحانه وتعالى هو الذي يهب الحكمة، وهو الذي يمنح الإنسان ملكة التأمل والتدبر. فإذا منح الله هذه الملكة لشخص ما، فإنه يعلم بالضرورة نوع الأسئلة التي ستنشأ في عقله، كما يعلم الأجوبة التي سيهديه إليها.

فعندما يعطي الله الإنسان ملكة التفكير والتأمل، فمن الطبيعي أن يبدأ الإنسان بطرح الأسئلة الوجودية الكبرى: من هو الله؟ من خلق هذا الكون؟ ما طبيعة الوجود؟ وهذه الأسئلة ليست طارئة، بل هي جزء من طبيعة العقل الإنساني حين يبلغ مرحلة من النضج. ومن هذا المنطلق يمكن القول إن هذه الأسئلة نفسها مقدرة، وكذلك الأجوبة التي ستكشف عنها الحكمة.

ثم يقول النص :(قلت متوسلًا: أرني طبيعة الواقع وباركني بمعرفة أتوم) .وهنا يطلب هرمس أن يرى حقيقة الواقع وأن يُبارك بمعرفة (أتوم). وقد ذكرنا سابقًا أن (أتوم) هو أحد الأسماء التي استُعملت في اللغة المصرية القديمة للدلالة على الإله.

وهنا يبرز سؤال مهم: لماذا ربط النص بين معرفة أتوم وبين معرفة طبيعة الواقع؟ الجواب أن (أتوم) – في التصور الذي يقدمه النص – هو أصل الواقع ومنبعه. فالواقع كله قائم به ومنه. وليس المقصود بذلك عقيدة الاتحاد أو الحلول، بل المقصود أن الكون يدل على خالقه. فإذا تأمل الإنسان في السماء، أو في الأشجار، أو في مظاهر الطبيعة المختلفة، أدرك أن هذه الأشياء لا يمكن أن توجد أو تنتظم بهذا الشكل إلا بوجود خالق حكيم يدبرها.

فالتدبر في الكون يقود الإنسان إلى إدراك أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذا الوجود ودبر شؤونه. ومن هنا تصبح معرفة الواقع طريقًا إلى معرفة الله؛ لأن الواقع نفسه دليل على وجوده. غير أن هذا الإدراك – في رأيي – لا يتحقق بمجرد التأمل العقلي المجرد، بل يتحقق أكثر عندما يكون التدبر بالقلب.

فالإنسان الذي يعتمد على الحسابات والمعادلات الفيزيائية وحدها قد يصل إلى الشك أو الإلحاد، لأن هذه المعادلات كثيرًا ما تفترض نماذج تفسيرية لا تتناول مسألة الخالق. وقد أشار بعض العلماء المعاصرين – مثل ستيفن هوكينغ – إلى تصورات كونية تحاول تفسير نشأة الكون دون الرجوع إلى فكرة الخلق. ومع ذلك فإن العلم نفسه يعترف بحدوده؛ فكثير من الأسئلة الكبرى ما تزال بلا جواب قاطع، مثل ماهية المادة المظلمة أو طبيعة كثير من الظواهر الكونية.

ولهذا يصدق قول الله تعالى :﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا﴾ .فالعلم الإنساني – مهما تقدم – يظل محدودًا، وتبقى فيه مساحات واسعة من المجهول. أما الحكمة فقد وصفها القرآن بقوله :﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا﴾ .ومن هنا يمكن القول إن الحكمة هي الأصل الذي ينبغي للإنسان أن يسعى إليه.

ولهذا السبب ينبغي على الإنسان أن يقرأ كتب الحكمة ويتدبر فيها، مثل النصوص الفلسفية والروحية القديمة، ومنها النصوص الهرمسية. غير أن قراءة هذه الكتب لا تعني أن الإنسان سيبلغ الحكمة الكاملة؛ فغاية ما يمكن أن يصل إليه القارئ هو جزء يسير منها. فحكمة الإنسان تبقى محدودة، وقد تتلاشى عند مواجهة المواقف الصعبة، مثل فقدان قريب أو التعرض لابتلاء شديد، حيث قد يفقد الإنسان هدوءه واتزانه.

ومع ذلك، فإن الإنسان في حياته اليومية يستطيع أن يكتسب قدرًا من الحكمة إذا اعتاد التأمل والهدوء والنظر في الأمور بعقل متزن. وهذه الحكمة لا تأتي من فراغ، بل تأتي من التدبر في كتب الحكمة والفلسفة الإلهية ومن التأمل في الكون وفي معاني الوجود.

وعندما نعود إلى عبارة النص :(أرني طبيعة الواقع وباركني بمعرفة أتوم)، نجد أنها تربط بين معرفة الواقع ومعرفة الله. وقد تحدثنا عن سبب هذا الربط، وهو أن الواقع نفسه دليل على الخالق. ويبقى السؤال :كيف يمكن للإنسان أن يصل إلى معرفة الله؟

في هذا الأمر لدي وجهة نظر، وهي أن الطرق إلى الله متعددة .فهناك طريق الدين، وهناك طريق الفلسفة، وهناك طريق العلم. بل إن أبسط مظاهر الطبيعة – كشجرة في بستان – يمكن أن تكون طريقًا لمعرفة الله؛ لأن التأمل في هذه الشجرة قد يقود الإنسان إلى إدراك حكمة الخالق وقدرته، ومن ثم إلى الإيمان بوجوده.

إن المعادلات الرياضية – مثل الظل (Tangent) والساين (Sine) والكوساين – (Cosine) يحتاج الإنسان إلى وقت طويل حتى يفهمها ويستخرجها. فقد يقضي ساعات في دراستها وتحليلها، ويستغرق دقائق طويلة في حسابها وفهم دلالاتها. ومع ذلك، فإن الله سبحانه وتعالى قد أوجد هذا الكون على نظام دقيق قائم على مثل هذه القوانين والمعادلات، من غير جهل ولا تعب ولا نصب. فنحن نرى أن الكون كله يسير وفق نظام رياضي وفلكي دقيق؛ فالنجوم والكواكب تتحرك في مدارات منتظمة وفق قوانين ثابتة، من غير عماد ظاهر ولا محرّك يدفعها دفعًا مباشرًا، بل تتحرك في نظام محكم يدل على حكمة الخالق وقدرته. وهذا – من ناحية العلم – دليل من الأدلة التي يستدل بها الإنسان على وجود الله سبحانه وتعالى.

أما من ناحية الفلسفة، فإن التأمل الفلسفي كذلك يقود إلى إدراك وجود الخالق. فالإنسان إذا تعمق في الفلسفة وأمعن النظر في قضايا الوجود والعلّة والغاية، وجد كثيرًا من الأدلة التي تشير إلى وجود الله. وقد عرض عدد كبير من الفلاسفة براهين على وجود الله، مثل ابن سينا، وأبي بكر الرازي، والسهروردي، وغيرهم من فلاسفة الحضارة الإسلامية. صحيح أن تصوراتهم الفلسفية عن الله قد تختلف أحيانًا عن التصور الديني التقليدي، لكنهم – في النهاية – قدموا أدلة عقلية عديدة تؤكد وجود الخالق. ولذلك فإن من يقرأ الفلسفة الإسلامية أو المسيحية قراءة متعمقة قد يجد نفسه مدفوعًا إلى الإيمان بوجود الله.

أما من ناحية الأديان، فإن الإنسان إذا قرأ النصوص الدينية وتأمل فيها فإن ثقته بالله تزداد، ويقوى إيمانه به. فالأديان تخاطب القلب قبل أن تخاطب العقل، والقلب في فطرته يميل إلى الإيمان بالله. فالأصل في الإنسان أنه يولد على الفطرة، وليس هناك إنسان يولد ملحدًا. لكن الإنسان قد يبتعد عن هذه الفطرة مع تغير الظروف، أو بسبب استيلاء العقل المادي على قلبه، أو بسبب ما يصيبه من قسوة وبلادة نتيجة أفعاله وسلوكه. عندها قد يفقد الإنسان بوصلته الروحية ويبتعد عن الإيمان.

والدين – حين يخاطب القلب – يكشف عنه غطاء الجهل والظلام. وقد رأيت ذلك بنفسي في تأثير النصوص الدينية، ولا سيما الآيات القرآنية، إذ إن لها أثرًا عظيمًا في القلب؛ فهي تنقيه وتزيل عنه الغشاوة والهموم. ولهذا فإن الإنسان عندما يقرأ القرآن، أو يلتزم بالعبادة والصلاة، يشعر بأن الغشاوة قد زالت عن قلبه، وأنه أصبح أكثر قربًا من الله سبحانه وتعالى وأكثر إيمانًا به.

ولهذا عندما يقول هرمس :(باركني بمعرفة أتوم)، فإن المقصود أن معرفة الله يمكن أن تتحقق بطرق متعددة. فهناك طريق الدين، وهناك طريق الفلسفة، وهناك طريق العلم. وكل إنسان قد يجد طريقه الخاص الذي يقوده إلى معرفة الله. فإذا سألني أحد: ما الطريق إلى معرفة الله؟ لقلت إن الطريق هو ما يطمئن إليه قلب الإنسان ويقوده إلى الإيمان الصادق.

وقد أدرك بعض الفلاسفة في الثقافات المختلفة هذه الفكرة، مثل الفلاسفة في الهند، حيث تحدثوا عن طرق متعددة للوصول إلى الحقيقة الإلهية. ومع ذلك، فأنا لا أوافق على فكرة التعدد الإلهي التي نجدها في بعض المذاهب الهندوسية، لأنني أرى أن الإله واحد وليس متعددًا، كما لا أوافق على بعض العقائد مثل الحلول أو الاتحاد التي تقول بها بعض تلك التقاليد.

كما ينبغي التنبيه إلى أن معرفة الله لا تتحقق من خلال التكفير أو التعصب الديني. فنحن هنا نؤكد أهمية الاعتدال والوسطية، ونرفض الانجرار وراء الدعوات التكفيرية. وليس المقصود

بذلك الجماعات المتطرفة في الإسلام فقط، مثل تنظيم القاعدة أو تنظيم داعش، بل إن التعصب والتكفير موجودان في كثير من الأديان والتقاليد، حيث يظهر دائمًا أشخاص يكفرون الآخرين أو يصفونهم بالزندقة ويهاجمونهم. ولهذا يجب الحذر من هذه النزعات الضيقة؛ لأن أصحابها لم يؤتوا الحكمة ولا المعرفة، بل كان نصيبهم من العلم قليلًا، وغلب عليهم الجهل. ولذلك ينبغي الابتعاد عن هذه الروح المتعصبة قدر الإمكان.

وبعد أن يقول هرمس :(باركني بمعرفة أتوم)، ينتقل النص إلى وصف تجربة روحية عميقة. فيقول هرمس :(فجأة تغيّر أمامي كل شيء، وانفتح الواقع في لحظة، فرأيت المشهد اللانهائي، وذاب كل شيء في النور متوحدًا بحب غامر).

وهنا يصف هرمس حالة معرفية وروحية خاصة، يمكن وصفها بحالة النور الإلهي أو الوجد الروحي .وهي تجربة فريدة يشعر فيها الإنسان بأن الواقع قد انكشف له على نحو مختلف، وكأن الحجب قد زالت، فظهر له الوجود في صورة نور شامل يغمر كل شيء. وهذه التجربة كثيرًا ما تحدث عنها المتصوفة والفلاسفة الروحيون، حيث يصفون لحظة الكشف أو الإشراق التي يشعر فيها الإنسان بالقرب من الحقيقة الإلهية.

المقالة 3 من شرح العلوم الهرمسية

بسم الله الرحمن الرحيم

نكمل ما كنا نتحدث عنه سابقًا في فلسفة هرمس، في كتاب متون هرمس: حكمة الفراعنة المفقودة .كنا عند الصفحة (38)، حيث يتحدث هرمس عن مخاطبته من قبل الكينونة العليا. يصف هرمس هذه اللحظة بقوله إن كل شيء تغيّر أمامه فجأة، وكأن الواقع قد انفتح في لحظة واحدة ليكشف له المشهد اللانهائي، ثم ذاب كل شيء في النور متوحدًا بحب غامر.

هذا النص يصف حالة هرمس عند مخاطبة الكينونة العليا له؛ فهو يصفها بالنور الإلهي، وبالوجد الرباني، وبالملكوت الرحماني. وهذه الحالة ليست غريبة في التجربة الدينية، بل قد تصيب كل مؤمن عندما يشعر بالقرب من الله أو عندما يتلقى المعاني الربانية في قلبه. فعادة المؤمن أنه عندما يسمع كلام الله أو يتدبر في الوحي، يشعر بأن مددًا ربانيًا ينهال عليه، وكأن هذا المدد يمنحه قوة للاستمرار في الحياة، ويعينه على مواجهة أمورها المختلفة.

ثم يقول هرمس" :فجأة تغيّر أمامي كل شيء، وانفتح الواقع في لحظة لأرى المشهد اللانهائي ."والمشهد اللانهائي هنا يشير إلى عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وهي عظمة لا تنتهي. وليس المقصود باللانهائية هنا مجرد الامتداد المادي، بل اللانهائية بمعنى الإبداع الإلهي الذي لا ينفد. فإبداع الله في الكون لا حد له، لأنه صادر عن خالق لا نهائي، ولذلك فإن مظاهر هذا الإبداع تظل ممتدة ومتجددة بلا نهاية.

ويتابع النص بقوله" :وذاب كل شيء في النور متوحدًا بحب غامر ."وهذه العبارة مهمة؛ إذ تكشف أن المؤمن عندما يتلقى المعاني الإيمانية العميقة يشعر بحالة من الحب العميق لمصدر إيمانه. فمثلًا عندما يصلي المسلم أو يقرأ القرآن ويتدبر معانيه، قد يشعر بحالة من الصفاء الروحي والوجد الإيماني، وكأنه يغترف من بحر لا ينتهي. وهذا البحر هو المدد الإلهي الذي يروي عطش الروح ويمنحها الطمأنينة.

ثم يقول هرمس" :لكن النور ألقى ظلالًا كئيبة رهيبة تهدر كأنها فيض مياه صاخب ."بعض المفسرين يرون أن مثل هذه العبارات لها تأويلات رمزية معقدة، لكني أميل إلى فهمها على ظاهرها الواضح. فالمقصود أن هذا الفهم العميق للحقيقة قد تكون له تبعات ثقيلة على النفس. فالإنسان عندما يتعمق في الإدراك الروحي ويفهم حقائق الوجود قد يشعر بنوع من الحزن أو الكآبة.

ولا أقصد هنا الكآبة بالمعنى الطبي المرتبط باضطراب الاكتئاب، وإنما أقصد حالة من الحزن التأملي الذي قد يصيب الإنسان عندما يتفكر في أسرار الكون وفي حقيقة الفناء. فعندما يدرك الإنسان أن كل شيء زائل وأن البقاء لله وحده، قد يتولد لديه شعور بالرهبة أو الحزن العميق. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى :﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾.

فهذا الإدراك، على الرغم من كونه نورًا يكشف الحقيقة، قد يلقي بظلال ثقيلة على النفس، لأن الإنسان يرى بوضوح زوال الدنيا وتقلب أحوال البشر، ويرى كذلك ما يغلب على الناس من الجهل أو الخداع. ومع ذلك فإن هذه الكآبة ليست مذمومة، بل هي كآبة تأملية تكشف للإنسان طريق الخير وتدفعه إلى التعلق بما هو أبقى وأسمى.

ولهذا شبّه هرمس هذا الإدراك بقوله إنه كفيض مياه صاخب .فالحقيقة ليست دائمًا سهلة أو مريحة؛ بل قد تكون موجعة أحيانًا. والتاريخ الديني مليء بالأمثلة على ذلك. فالنبي محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن يدعو إلا إلى حقيقة بسيطة وهي أن الله واحد، ومع ذلك تعرّض

للأذى والاضطهاد، لأن إعلان الحقيقة قد يكون ثقيلًا على النفوس التي اعتادت على أوهامها.

وهكذا يصوّر هرمس لحظة الكشف الروحي بوصفها مزيجًا من النور والرهبة، ومن الحب العميق والإدراك الثقيل للحقيقة؛ فهي تجربة تكشف للإنسان عظمة الخالق من جهة، وتكشف له في الوقت نفسه ثقل الحقيقة وعمقها من جهة أخرى.

فالحقيقة غالبًا ما تكون مزعجة ومؤلمة للبشر، لأن الإنسان بطبيعته لا يتقبلها بسهولة، خصوصًا عندما تكشف له حدود وجوده أو زيف بعض ما اعتاده في حياته. ولهذا فإن مواجهة الحقيقة قد تكون تجربة ثقيلة على النفس، لأنها تفرض على الإنسان إعادة النظر في أفكاره ومعتقداته.

ثم يقول هرمس في النص إنه سمع صرخة ذبيحة، وهو وصف يدل على أنه شهد أو سمع أمرًا غريبًا وعجيبًا ضمن هذه الرؤيا الروحية. وبعد ذلك نطق النور بكلمة بعثت الهدوء في اللجة الصاخبة .والمقصود هنا أن النور أرشده ووجّهه، وبيّن له الطريق، وكشف له بعض الحقائق التي كانت خافية عليه.

ثم يذكر هرمس أن مرشده سأله" :ألا تفهم سر هذه الرؤيا؟ ."والمقصود بهذا السؤال أن الكينونة التي تخاطب هرمس تريد منه أن يستوعب معنى ما يراه، وأن يدرك حقيقة هذه التجربة. فالأمر ليس مجرد رؤيا عابرة، بل تجربة تحمل رسالة ومعنى ينبغي فهمهما.

إن هذا السؤال يشير إلى أن هرمس مكلّف بفهم ما يُلقى إليه من هذه الكينونة العليا، لأن الفهم هنا يتعلق بأمر عظيم، وهو معرفة الطريق المستقيم. وهذا المفهوم يمكن أن نقارنه بما ورد في القرآن الكريم من التعبير عن الطريق الحق بـ الصراط المستقيم .فالسؤال :*ألا تفهم سر هذه الرؤيا؟* يعني: ألا تدرك مكنون هذا الأمر؟ ألا تفهم حقيقة ما يجري لك؟ وما الغاية من هذه التجربة؟

ثم يجيبه النور قائلًا" :أنا النور، فكر الإله الأزلي الذي كان قبل هيولى ظلمة مياه الإمكان ". وهنا يعرّف النور نفسه بأنه فكر الإله الأزلي. والمقصود بذلك الإشارة إلى الخالق الواحد الأزلي، الذي كان موجودًا قبل ظهور العالم المادي.

أما عبارة "مياه الإمكان "فهي تشير إلى العالم الممكن الوجود بحسب اصطلاح الفلاسفة، لأن الفلاسفة يفرقون بين الواجب الوجود، وهو الله، وبين الممكن الوجود، وهو العالم المخلوق. ولذلك فإن وصف العالم بأنه عالم الإمكان يعني أنه ليس واجب الوجود بذاته، بل وجوده قائم على الخالق.

كما أن وصف النور بأنه فكر الإله الأزلي يدل على أن الله ليس شيئًا ماديًا، بل هو وجود معنوي متعالٍ عن المادة. فالله سبحانه وتعالى ليس جسمًا ولا مادة، بل هو الخالق الأزلي الذي صدر عنه الكون كله.

وإلى هنا نتوقف، على أن نكمل بإذن الله في الحلقات القادمة.

المقالة 4 من شرح العلوم الهرمسية

بسم الله الرحمن الرحيم

نبدأ اليوم بإذن الله إكمال شرح متون هرمس، وربما يكون هذا الجزء الثالث أو الرابع من الشرح. وقد كنا في كتاب (متون هرمس: حكمة الفراعنة المفقودة) عند الصفحة (38). وقد وصلنا إلى العبارة :(كلمتي التي بعثت الهدوء في الصخب هي ابن الإله، وهي فكرة النظام الجميل الذي يتسق به كل شيء مع الأشياء).

يمكن تأويل هذه العبارة على النحو الآتي: إن المقصود بـ (كلمتي) هو كلمة الخالق سبحانه وتعالى، أي الأمر الإلهي أو النظام الذي به انتظم الكون. فالأمر الإلهي هو الذي أوجد النظام في الكون ونظّم الفوضى الكونية التي كانت موجودة. ونحن نعلم – بحسب العقيدة الإسلامية – أن الله هو خالق كل شيء، كما ورد في القرآن الكريم، وأنه سبحانه الأساس في وجود هذه العوالم.

ولا نريد هنا الدخول في الجدل الفلسفي القديم حول ما إذا كان الكون أزليًا أم حادثًا، وهو الجدل الذي خاض فيه الفلاسفة، وخصوصًا المشائيين. وإنما المقصود هنا هو توضيح فكرة النظام الكوني. فعندما يقول هرمس :(كلمتي التي بعثت الهدوء في الصخب هي ابن الإله)، يمكن فهم ذلك بمعنى أن نظام الله وأمره هو الذي نظّم الكون وأخرج الوجود من الفوضى إلى الانتظام.

ثم يقول :(هي فكرة النظام الجميل الذي يتسق به كل شيء مع الأشياء) .والمقصود بالنظام الجميل هنا النظام المتناسق؛ فهو جميل لأنه منظم، وواضح، وغير عشوائي. فكل شيء في الكون يسير وفق ترتيب دقيق، ولا يوجد شيء يحدث بلا تقدير أو ميزان.

إن هذا النظام يضع كل شيء في تراتبية محددة؛ فلا يوجد شيء بلا مقدار أو تقدير. فالكون كله قائم على التقدير والميزان. ومن دون هذا التقدير لا يمكن أن يتحقق الانسجام الكوني. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النظام في قوله تعالى :﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾، وكذلك في قوله تعالى :﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾.

وهذا يدل على أن الكون قائم على نظام دقيق ومنظم. فلو اختل هذا النظام ولو بقدر يسير لفسد التوازن الكوني. فمثلًا لو تغيّرت المسافات الفلكية بين الأجرام السماوية تغيرًا كبيرًا لاختل النظام كله. ولذلك فإن النظام هو أساس انتظام الكون واستمراره.

ثم يذكر هرمس عبارة أخرى يقول فيها :(الفكر الأول هو أبو الكلمة، ويوازي في خبرتك الإنسانية فكرك الإنساني الذي يلد الكلام) .والمقصود بـ الفكر الأول هنا – في هذا التفسير – ليس أن الله يفكر كما يفكر الإنسان، لأن الله تعالى يقول في القرآن الكريم :﴿ليس كمثله شيء﴾ .وإنما المقصود أن الله سبحانه وتعالى أوجد هذا الكون وفق علم وتنظيم محكمين.

فالتعبير بـ الفكر الأول يشير إلى الأصل الذي صدر عنه النظام الكوني. وعندما يقول إن الفكر الأول هو أبو الكلمة، فإن المقصود أن الفكر هو أصل النظام أو أصل الأمر الذي به انتظم الكون.

ولكي يوضح هرمس هذه الفكرة لمريده أو لتلميذه، شبّه الأمر بما يحدث في الخبرة الإنسانية. فالإنسان قبل أن يتكلم يفكر أولًا، ثم تخرج الكلمة بعد ذلك نتيجة للفكر. وهذا

مجرد تشبيه لتقريب المعنى، لا يعني أن الله يفكر على طريقة البشر، وإنما المقصود توضيح العلاقة بين الفكر والنظام.

ثم يقول هرمس :(فلا يمكن فصلهما، حيث ينحبس الواحد عن الآخر) .والمقصود هنا أنه لا يمكن فصل الفكر عن الكلمة، لأن الكلمة هي نتيجة الفكر. فإذا فُصل الفكر عن النظام صار الوجود عشوائيًا، ولو كان الكون عشوائيًا لما استقام ولا استمر.

ولهذا يضيف هرمس عبارة مهمة أخرى، وهي قوله :(إذ إن الحياة هي اتحاد العقل والكلمة) .والمقصود بالحياة هنا الكون بكل ما فيه من كائنات وموجودات وكواكب ونجوم. فالحياة – بحسب هذا التعبير – هي اتحاد العقل والنظام، أي اتحاد الفكر الكوني بالنظام الذي يحكم الوجود.

ثم يقول هرمس :(والآن اعمل فكرك في النور وتوحد معه) .وهنا يحث هرمس تلميذه على أن يوجه فكره نحو النور، أي نحو معرفة الله والتأمل في خلقه. فالمقصود بالنور هنا هو الحقيقة الإلهية أو المعرفة الروحية.

ولذلك فهو لا يقول: اعمل فكرك في الظلمة، بل يقول :اعمل فكرك في النور .أي تأمل في بديع خلق السماوات والأرض، وفي النظام العجيب الذي يحكم الكون. ومن خلال هذا التأمل يمكن للإنسان أن تتفتح آفاقه الروحية وأن يزداد إدراكه لعظمة الخالق سبحانه وتعالى.

وهنا يمكن أن نتذكر قول الله تعالى في القرآن الكريم عن التأمل في الخلق، إذ إن النظر في نظام الكون وآياته الكونية يقود الإنسان إلى معرفة عظمة الخالق وإلى إدراك حكمته في خلق هذا الوجود.

وكما أن نجوم هذه الحياة هي اتحاد العقل والكلمة، أي اتحاد النظام والفكر؛ فكر الله تعالى والنظام الذي أوجده في هذا الكون. ولهذا يقول هرمس :(اعمل فكرك في النور وتوحّد معه) .ومعنى هذه العبارة أن يجعل الإنسان فكره متجهًا نحو النور، وأن يسعى إلى الاتحاد

به. وهنا يحثّ هرمس تلميذه أو مريده على أن يتوجه بعقله إلى الله سبحانه وتعالى، وأن يتفتح وعيه بحيث ترتقي روحه ويصبح كائنًا ربانيًا موحّدًا.

ولا يقول هرمس: (اعمل فكرك في الظلمة وتوحّد معها)، بل يقول :(اعمل فكرك في النور) . والمقصود بالنور هنا هو الله سبحانه وتعالى، ويمكن أيضًا أن يُفهم النور على أنه النظام الذي أوجده الله في الكون، والدقة العجيبة التي بُني عليها هذا الوجود. فكل ما في الكون من انتظام وتناغم وإبداع هو من آثار هذا النور الإلهي.

وعليه، فإن معنى قول هرمس (اعمل فكرك في النور) هو أن يتدبر الإنسان في هذا الكون، وفي بديع السماوات والأرض، حتى يصل من خلال هذا التدبر إلى معرفة الخالق سبحانه وتعالى. وهذا المعنى يذكرنا بما ورد في القرآن الكريم من دعوة إلى التفكر والتدبر، كما في قوله تعالى :﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾، وقوله تعالى :﴿ويتفكرون في خلق السماوات والأرض﴾.

ثم يقول هرمس في صفحة 39 :(ثم إنه نظر إليّ كواحد إلى واحد) .وهذه العبارة يمكن فهمها بمعنى أن الله أفاض على هرمس من رحمته ومن نور معرفته، فأصبح هرمس متنورًا بنوع من الفهم والإدراك. وليس المقصود أن النظر كان نظرًا ماديًا مباشرًا، وإنما المقصود هو الفيض الإلهي أو المدد الرباني الذي يصل إلى قلب الإنسان في لحظات الصفاء الروحي.

وقوله (كواحد إلى واحد) يشير إلى حالة روحية عميقة؛ وهي أن الإنسان عندما يتصل بالمصدر الإلهي ويتأمل في ذات الله، يغيب عنه العالم كله، فلا يبقى في شعوره إلا الله وحده. وليس المقصود بذلك اتحادًا ماديًا، وإنما حالة من التركيز الروحي والتأمل العميق التي تجعل الإنسان يغفل عن تفاصيل الحياة اليومية لينصرف فكره إلى التأمل في الخالق سبحانه وتعالى.

ويقول هرمس بعد ذلك :(فرأيت الفكر وأنا أرتعد قوةً لا حدّ لها في جوهر النور) .ويمكن تأويل كلمة (الفكر) هنا بمعنى النظام الإلهي أو الإبداع الرباني. أي أن هرمس رأى بعين البصيرة النظام العظيم الذي أبدعه الله في الكون، ورأى مظاهر الخلق والملكوت، فامتلأ قلبه رهبةً وخشوعًا.

وهذا الارتعاد ليس خوفًا مجردًا، بل هو ما يمكن تسميته حالة الوجل التي ذكرها القرآن الكريم في وصف المؤمنين، وهي حالة تجمع بين الهيبة والطمأنينة والخشوع. وهذه الحالة من الحالات الروحية العميقة التي قد يصل إليها الإنسان عند التأمل في عظمة الله تعالى.

ثم يقول هرمس :(قوة لا حد لها في جوهر النور تشكّل عالمًا متنوعًا بلا نهاية، ولكنه منضبط بلا حدود) .والمقصود بذلك أن الفكر الإلهي أو النظام الكوني هو مصدر هذا التنوع الهائل في العالم. فالكون مليء بالأسرار والعلوم والظواهر التي لا يمكن للعقل البشري أن يحيط بها إحاطة كاملة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى:
﴿ولا يحيطون بشيءٍ من علمه إلا بما شاء﴾.

فالكون إذن عالم متنوع بلا نهاية من حيث إدراك الإنسان له، لأنه مليء بالأسرار والعلوم التي لا تنتهي. ولكنه في الوقت نفسه منضبط ومحكم لأنه قائم على النظام الذي أوجده الله سبحانه وتعالى.

وقد يظن البعض أن في هذا الكلام تناقضًا: كيف يكون الشيء بلا حدود وفي الوقت نفسه منضبطًا؟ والجواب أن هذا العالم منضبط بالنسبة إلى علم الله وحكمته، لأن الله خلقه بإحكام ونظام. أما بالنسبة إلى العقل البشري فهو بلا حدود، لأن الإنسان لا يستطيع أن يحيط بكل أسرار الكون وعلومه.

ثم يقول هرمس :(وتعاظمت دهشتي) .وهنا يصف هرمس الحالة الروحية التي أصابته عند تأمله في هذه الأسرار الإلهية؛ إذ ازدادت دهشته وتعاظم إعجابه بعظمة الخلق، واشتدت رغبته في استكشاف هذه العوالم الروحية.

ويذكرنا هذا المعنى بما ورد في القرآن الكريم من وصف لبعض الظواهر الكونية المدهشة، كما في قوله تعالى:
﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾.
فكما يخطف البرق الأبصار بشدته، كذلك تخطف أسرار الكون وعظمة الخلق قلب الإنسان المتأمل، فيزداد اندهاشًا وتعجبًا.

ثم يقول هرمس :(ورأيت في ظلام الأعماق) .والمقصود بظلام الأعماق ليس الظلمة الحسية، بل الأسرار الخفية والعلوم العميقة التي أخفاها الله عن عامة الناس. فهذه الأسرار تشبه الأعماق المظلمة التي لا يصل إليها إلا من يغوص فيها.

ومعنى ذلك أن هرمس عندما تأمل في هذه الأسرار الربانية، أدرك شيئًا من هذه الأعماق المعرفية والروحية التي لا يراها الإنسان العادي، لأنها تتطلب صفاء الفكر وعمق التأمل.

يرى هرمس في هذه الأسرار ما يشبه مياهًا صاخبة لا شكل لها .والماء في الفلسفات القديمة والأديان القديمة، بل وحتى في بعض مدارس علم التنجيم، يُؤوَّل غالبًا بمعانٍ متعددة؛ فقد يرمز إلى الرحمة، أو الحكمة، أو الأسرار، أو الأمور الخفية العميقة.

ومن هذا المنطلق فإن هرمس عندما وصف هذه الأسرار بأنها مياه صاخبة، فإنه يشير إلى أمور لا يستطيع العقل البشري تقبّلها بسهولة، ولا يمكنه استيعابها بسرعة. فالصخب هنا يدل على الاضطراب الذي يصيب العقل عندما يواجه حقائق أكبر من قدرته على الفهم. أما قوله إنها لا شكل لها فالمقصود به أنها بلا حدود ولا نهاية، وأن الغوص فيها قد لا يؤدي

إلى نتيجة واضحة، لأن الإنسان كلما تعمق في هذه الأسرار وجد نفسه أمام مزيد من الغموض.

ولهذا فإن الغوص العميق في هذه المسائل قد يجعل الإنسان ينسى نفسه وينسى حتى توازنه العقلي، ويصبح منجذبًا إلى هذه العوالم الفكرية جذبًا شديدًا. ولذلك فإنني أنصح من يحاولون التعمق في الأسرار الإلهية والروحانية أن يفعلوا ذلك بحذر، وألا يبالغوا في الغوص فيها، حمايةً لعقولهم من الاضطراب.

والمقصود بالعوالم الروحانية هنا ليس عالم الجن أو الشياطين، بل المقصود المسائل الفلسفية والدينية الكبرى مثل: الله، والوجود، والخير، والشر. فهذه المسائل ينبغي للإنسان أن يتناولها بقدر من التوازن، لأن الإفراط في الغوص فيها قد يؤدي إلى صدمات فكرية عندما يكتشف الإنسان حقائق لم يكن مستعدًا لها.

ثم يقول هرمس :(رأيت في ظلام الأعماق مياهًا صاخبة لا شكل لها) .وعبارة (ظلام الأعماق) ترمز إلى الأسرار العميقة والخفية. أما المياه الصاخبة التي لا شكل لها فتعني أنها بلا حدود ولا نهاية.

ويقول بعد ذلك :(نفذت إليها نسبة ذكاء من قوة ربانية) .والمقصود بالذكاء هنا هو التنظيم والتنسيق والنظام. أي أن هذه الأمور الكونية كلها تخضع لتنظيم إلهي دقيق مصدره القوة الربانية التي أوجدت الكون ونظمته.

ثم يقول هرمس :(وفاضت كلمة أتوم على المياه الصاخبة لتجعلها حبلى بجميع الأشكال) . وكلمة (أتوم) هنا تشير إلى الله سبحانه وتعالى، وقد استخدمها المترجم لأنها تقابل اسم الإله في اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية).

أما قوله (كلمة أتوم) فالمقصود بها الفكر الإلهي أو الأمر الإلهي المنظم. ويمكن فهم هذه العبارة بتأويلين:

الأول: أن الله سبحانه وتعالى نظم الفوضى الكامنة في هذه المياه الصاخبة، فجعل ما كان يبدو عشوائيًا يتحول إلى نظام منسق ومنظم.

والثاني: أن الله ينظم الأسرار الربانية ويجعلها متاحة فقط لمن يستحقها، فيفيض بها على من يشاء من عباده.

أما قوله (لتجعلها حبلى) فالمقصود أن هذه الأسرار أصبحت قابلة للظهور والتجلي، أي قابلة لأن تنكشف لمن يستحق معرفتها. وقوله (بجميع الأشكال) يعني بجميع الطرق والوسائل الممكنة، لأن إدراك الحقيقة الإلهية يمكن أن يتم عبر طرق متعددة من التأمل والمعرفة.

ثم يقول هرمس :(ووجدت العناصر الأربعة باتساق الكلمة واتحدت لتكون جميع الأحياء) . وهذه العبارة تحمل معنى ماديًا ومعنى روحانيًا.

أما المعنى المادي فهو أن الكون تكوَّن من العناصر الأربعة القديمة :الماء، والهواء، والنار، والتراب. وقد اختلف الفلاسفة اليونانيون قديمًا حول أصل الأشياء؛ فمنهم من قال إن أصل كل شيء هو النار، ومنهم من قال الهواء، ومنهم من قال الماء أو التراب. غير أن القرآن الكريم أشار إلى أهمية الماء في الخلق بقوله تعالى:
﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

وأما المعنى الروحي لهذه العناصر فيمكن فهمه على نحو رمزي؛ فكل عنصر يرمز إلى صفة معينة. فالماء قد يرمز إلى الرحمة، والهواء إلى الذكاء، والتراب إلى النظام والثبات، والنار إلى الغضب والقوة. ومن اجتماع هذه الصفات تتكون مظاهر الحياة المختلفة.

ثم يقول هرمس :(عنصر النار جلي كأبراج النجوم، والكائنات الإلهية في السماوات السبع تدور في أفلاكها إلى الأبد) .وقد خصّ هرمس عنصر النار بالذكر بعد حديثه عن العناصر الأربعة، لأن النار تُعد في كثير من التصورات الفلسفية القديمة أخف العناصر وأكثرها قربًا إلى السماء.

فالنار لا شكل ثابتًا لها، وهي أقل ثقلًا من التراب والماء. ولهذا اعتبر بعض الفلاسفة أن النار تمثل بداية التكوين الكوني.

كما أن النجوم والكواكب في السماء تشبه النار في طبيعتها المضيئة، ولهذا قال هرمس إن عنصر النار جلي كأبراج النجوم .والكائنات السماوية – بحسب التصور القديم – تدور في أفلاكها باستمرار ضمن نظام كوني دقيق.

وقد دار جدل طويل بين الفلاسفة حول ما إذا كانت الكواكب أزلية أم حادثة .فبعض الفرق، مثل صابئة حران، اعتقدوا أن الكواكب أزلية. بينما رأى آخرون أنها مخلوقة وليست أزلية. غير أن هذا الجدل في الحقيقة لا يمس جوهر القضايا الكبرى، لأن المسائل الأهم التي تستحق البحث هي المسائل الوجودية والربانية العميقة المتعلقة بمعرفة الله والوجود والحكمة الكونية.

ولقد أُنفقت مليارات الدولارات من قبل وكالة ناسا في سبيل دراسة هذا الأمر، ومع ذلك لم يتم التوصل إلى نتيجة حاسمة، ولذلك يبدو أن هذا الخلاف لا يزال عقيماً. فعنصر النار واضح في أبراج النجوم، والكائنات الإلهية في السماوات السبع تدور في أفلاكها إلى الأبد. وطبيعة هذه الكائنات الإلهية هي الخلود. وأنا أؤمن بذلك؛ فإن لم يكن خلودها بالجسد فهو بالروح، وإن لم يكن بالروح فهو بالفكرة. فالكائنات الإلهية تستمد كينونتها من الله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى خالد، ومن ثم فإن ما يستمد وجوده وقوته من الله يحمل نصيباً من هذا الخلود.

ومع ذلك، لا أعني أبداً أن الكائنات الإلهية ينبغي أن تُعبد كما يُعبد الله سبحانه وتعالى، فذلك غير صحيح. وإنما المقصود أن هذه الكائنات تستمد قوتها من الله، وبما أن الله سبحانه وتعالى خالد، فإن ما يستمد منه قوته يكتسب نوعاً من الخلود من جهة الفكرة والمعنى، لا من جهة الوجود المطلق.

ثم يقول هرمس إن (الكلمة رُفعت من عناصر الطبيعة لتعود إلى فكر الخالق، تاركة المادة الحية مجردة). ومعنى ذلك أنه عندما انتهى الله سبحانه وتعالى من خلق هذا الكون ووضع (الكلمة) في عناصر الطبيعة لتمنحها الحياة والحركة، رُفعت هذه الكلمة مرة أخرى إلى مصدرها الإلهي، أي إلى فكر الخالق. وكأن النظام الذي منح الحياة لعناصر الطبيعة قد أُودع فيها أولاً، ثم عاد إلى مصدره، وبقي أثره يعمل في هذه العناصر.

ولا يعنيني هنا الجدل الفلسفي حول ما إذا كان خلق الكون أزلياً أم حادثاً؛ فهذه مسائل طويلة الخلاف. إنما المقصود هنا تفسير النص وتأويله. فالتأويل يفيد بأن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الكون وضع (الكلمة) في عناصر الطبيعة حتى تصير حية وتتحرك بنظام، ثم رُفعت هذه الكلمة مرة أخرى، أي رُفع النظام إلى مصدره الإلهي، وبقي أثره يعمل في الكون.

ومن هنا نتوصل إلى أن (الكلمة) هي مبدأ حيّ يمنح الحياة بأمر الله سبحانه وتعالى وبإذنه. فهي التي أُودعت في عناصر الطبيعة ثم عادت إلى أصلها، لكنها تركت في الكون أثرها الذي ينظم حركة الأشياء.

ثم يقول هرمس: (قال مرشدي: لقد أدركتُ لا نهائية الفكر الأول الذي كان قبل البداية بمشيئة أتوم، والذي خلق عناصر الطبيعة انعكاساً للفكرة الأولى في مياه الإمكانية). ويعني هرمس هنا أنه فهم وأدرك لا نهائية الفكر الأول. فالفكر الأول غير محدود، وغامض، وغير متناهٍ، لا بالمعنى المادي، بل بالمعنى الروحي، لأنه يستمد قوته من الله سبحانه وتعالى. وكل ما يستمد قوته من الله يحمل في ذاته صفة اللانهائية من حيث المعنى.

وقوله (الذي كان قبل البداية) يشير إلى أن هذا الفكر الأول سابق للخلق، أي سابق لظهور الكون. أما قوله (بمشيئة أتوم) فيعني بمشيئة الله سبحانه وتعالى، إذ إن كل شيء في هذا الكون يجري بأمره وبنظامه. وهذه فكرة تكاد تتفق عليها مختلف الأديان والملل، وهي أن الكون قائم على نظام إلهي محكم.

ثم يضيف النص أن مشيئة أتوم هي التي أوجدت عناصر الطبيعة: الماء والهواء والنار والتراب. وهذه العناصر هي انعكاس للفكرة الأولى في (مياه الإمكانية). والمقصود بمياه الإمكانية هو قابلية الوجود، أي الاستعداد الكامن في الوجود لأن يتشكل ويتحقق.

وهذا المعنى قريب مما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة القمر :﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ .فكل ما في الكون خُلق وفق نظام دقيق وتقدير محكم. ولذلك فإن عناصر الطبيعة والكون كله إنما هو انعكاس لذلك النظام الإلهي الأول الذي أودعه الله في الخلق.

ولهذا يقول النص: (تلك هي النماذج السابقة الأولى، أصول كل شيء في الكون). أي أن هناك نماذج أو أصولاً أولى قامت عليها الموجودات كلها. فالله سبحانه وتعالى خلق أشياء متعددة ومختلفة، لكن أصلها جميعاً يعود إلى نماذج أولية مرتبة بدقة. وهذه النماذج هي الأساس الذي تتفرع منه الكائنات والأشياء في العالم.

ثم يقول هرمس: (كلمة أتوم فكرة خالقة وقوة سامية لانهائية تغذي وتخصب جميع الأشياء وتخلق كل شيء). فالمقصود هنا أن النظام الإلهي أو الفكر الإلهي هو المبدأ الذي يفيض منه الوجود في الكون كله. وهذه القوة توصف بأنها سامية ولانهائية لأنها تستمد قوتها من الله سبحانه وتعالى، ووجود الله لا ينتهي، بل هو أزلي أبدي.

ومن ثم فإن جميع الأشياء في الكون تستمد فيضها ووجودها من الله سبحانه وتعالى، وفكر الله هو الأساس في خلق كل شيء.

ويقول بيمندر أو الكينونة العليا: (لقد أطلعتك على كل الأمور، فماذا تنتظر؟). وهذه العبارة تحمل معنى عميقاً؛ فهي تشير إلى أن الإنسان عندما يطلع على أسرار الوجود وأسس الخلق ينبغي أن يبادر إلى البحث عن المزيد من المعرفة، وأن يسعى لفهم الكون بصورة أعمق، وأن يعمل بهذه الحكمة في حياته.

فالمعرفة الحقيقية لا تقتصر على التعلم النظري، بل تقتضي أيضاً الالتزام الأخلاقي. أي أن يخضع الإنسان لهذه المعرفة من جهة السلوك، وأن يلتزم بميثاق أخلاقي يسمو به عن الرذائل والشهوات والملذات غير المشروعة.

ثم يقول النص: (اكتب الحكمة التي فهمتها بحروف مصرية، وانقشها على حجارة قدس الأقداس). وهذا يدل على أهمية هذه الحكمة وعظيم شأنها في حياة الإنسان، حتى كأنها تستحق أن تُنقش في أقدس المواضع.

وأنا أقول إن الحكمة ليست في الانعزال في الجبال، ولا في التشدد أو التزمت، ولا في التظاهر بالزهد المبالغ فيه كما تفعل بعض الطوائف. وليست الحكمة أيضاً في القسوة أو التعصب أو فرض الرأي على الآخرين.

بل إن الحكمة الحقيقية تكمن في التسامح، والمحبة، والمودة، وقبول الآخر. فلا فائدة من أي علم إذا لم يجعل الإنسان أكثر إنسانية ورحمة. فالعلم الحقيقي هو الذي يفتح قلب الإنسان للناس، ويجعله ينظر إليهم بعين الرحمة والتعاطف.

ولهذا فإن الحكمة التي يدعو إليها هذا النص ليست مجرد معرفة نظرية، بل هي أسلوب حياة يقوم على المعرفة، والأخلاق، والتأمل في الكون، والسعي المستمر لفهم أسراره.

وليست الحكمة في أن يعتزل الإنسان في الجبال أو أن يربي لحيته حتى تصل إلى ركبتيه كما تفعل بعض الطوائف، ولا في أن يتشدد أو يترهبن، أو أن يصبح جلف الأخلاق، قاسي القلب، غليظ الاعتقاد. فليست هذه هي الحكمة الحقيقية. الحكمة ليست في الإرهاب، ولا في القمع، ولا في فرض الرأي على الآخرين. إنما الحكمة تكمن في التسامح، وفي المحبة، وفي المودة، وفي تقبّل الآخر.

فلا فائدة من أي علم يمتلكه الإنسان إذا لم يكن قادراً على تقبّل الآخرين، والتعاطف معهم، والنظر إليهم بعين إنسانية. هذا هو الأساس الحقيقي لأي معرفة. ولهذا يقول النص :(اكتب

الحكمة التي فهمتها بحروف مصرية، وانقشها على حجارة قدس الأقداس)، وذلك لأهمية هذه الحكمة في حياة الإنسان.

وأنا أقول إن الحكمة أهم من العلم. وقد يتساءل البعض: لماذا الحكمة أهم من العلم؟ لأن الحكمة تُربي الإنسان، وتهذب قلبه، وتصقل أخلاقه، وتقوم أسسه النفسية والروحية. أما العلم وحده فقد يجعل الإنسان متكبراً أو متعالياً. وقد لاحظت، من خلال تجربتي، أن كثيراً من دكاترة الجامعات ـ مع كامل الاحترام والتقدير لهم ـ قد يظهر عليهم شيء من الكِبر أو الاستعلاء أو جلافة الأخلاق.

وبطبيعة الحال، لا يمكن تعميم هذا الحكم؛ فهناك دكاترة جامعات محترمون وأصحاب أخلاق رفيعة وذوق عالٍ. لكنني رأيت كثيراً من العلماء ـ وما زلت أرى حتى الآن ـ من تظهر عليهم مظاهر الكبر أو الاستعلاء أو جلافة الأخلاق، وعدم الصبر على الطالب، بل أحياناً محاولة إحراجه أو الاستهزاء به. وهذا أمر خاطئ وغير مقبول.

**إن الصحيح هو أن تكون الحكمة هي التي تهذب نفس الإنسان وقلبه وأخلاقه. ولهذا جاء في النص :(اكتب الحكمة التي فهمتها بحروف مصرية، وانقشها على حجارة قدس الأقداس) .
ويقول الكتاب كذلك :(واجعل نفسك مرشداً روحياً لأولئك الذين يستحقون المعرفة، فيُنقِذ أتوم على يديك الإنسان).**

ومعنى ذلك أن الإنسان إذا منحه الله علماً فعليه أن ينشره، لا أن يحتكره كما يفعل بعض العلماء في عصرنا. فالعلم نافع للبشرية، وهو الذي ينهض بها، ويساعد الناس، ويرشدهم إلى الطريق الصحيح، ويهذب نفس الإنسان ويقود قلبه نحو الأخلاق الفاضلة.

لذلك لا ينبغي للإنسان أن يكون جلفاً أو قاسي القلب، بل يجب أن يكون مرشداً للآخرين بأي وسيلة من الوسائل، حتى يكون فاضلاً أخلاقياً.

ثم يقول هرمس على لسانه :(مدين أنا بالحمد للأب الواحد الذي أفاض عليّ نظرة علوية) . والمقصود هنا أن هرمس يشكر الله سبحانه وتعالى الذي منحه هذه الأسرار الإلهية، وأفهمه هذه المعارف الربانية. فالحمد هنا لا يعني مجرد شكر باللسان، بل هو شكر بالقلب أيضاً.

وعندما يقول هرمس (الأب الواحد) فليس المقصود بذلك الأب بالمعنى العقدي المعروف في العقيدة المسيحية، وإنما هو تعبير مجازي. فالمقصود أن الله سبحانه وتعالى هو الذي علّم هرمس وأفاض عليه المعرفة، وكأن العلاقة هنا تشبه علاقة الأب بابنه من حيث التعليم والرعاية. إنه تشبيه استخدمه هرمس للتعبير عن عناية الله به وتعليمه له.

وفي هذا السياق أذكر أنني قرأت في السنة النبوية حديثاً يقول :(أدّبني ربي فأحسن تأديبي)، وفي رواية أخرى :(علّمني ربي فأحسن تعليمي) .ومع أن الحديث ضعيف من حيث السند، إلا أن معناه قريب من الفكرة التي نتحدث عنها هنا.

أما قوله :(الذي أفاض عليّ نظرة علوية)، فالمقصود بالنظرة العلوية هنا ليس النظر من أعلى السماء بالمعنى الحرفي، بل المقصود فهم عميق وشامل لأسرار الكون. إنها نظرة عقلية وروحية تمكّن الإنسان من رؤية الأمور بصورة أوسع وأعمق.

فكأن الإنسان حين يمتلك هذه النظرة يرى الأشياء من مستوى أعلى، فيفهم ترابطها ومعانيها بصورة أوضح، كما لو أن من ينظر من السماء يستطيع أن يرى ما تحته من الأرض بصورة شاملة.

وهكذا يعبّر هرمس عن أنه أدرك كثيراً من الأسرار الإلهية والمعارف الربانية، وأن الله أفاض عليه فهماً عميقاً جعله يرى الأمور بوضوح وصواب، لا بجهل أو خطأ.

ونكمل ـ بإذن الله ـ في الدروس القادمة، ونكتفي بهذا المقدار الى هنا

المقالة 5 من الفلسفة الهرمسية

بسم الله الرحمن الرحيم.

نبدأ اليوم، بعون الله، إكمال شرح الفلسفة الهرمسية. وقد كنا قد وصلنا إلى الصفحة (39) من كتاب (متون هرمس: حكمة الفراعنة المفقودة) تأليف بيتر جاندي. وقبل أن نبدأ في شرح النص، لا بد من ذكر ملاحظة مهمة تتعلق بطبيعة الفلسفة الهرمسية نفسها.

إن الفلسفة الهرمسية لا تمتلك تأويلاً ثابتاً أو تفسيراً واحداً قاطعاً. فعلى سبيل المثال، إذا ذهبنا إلى علم القانون نجد أن هناك تعريفات محددة ودقيقة؛ كتعريف العقد بأنه ارتباط الإيجاب بالقبول على وجه يثبت أثره في المعقود عليه. وكذلك الحال في الرياضيات، حيث إن النتائج ثابتة لا تقبل الاختلاف، مثل أن 1 + 1 = 2، وأن 5 × 5 = 25. أما في الفلسفة الهرمسية فالأمر مختلف؛ إذ لا يوجد تأويل واحد محدد للمفاهيم الهرمسية. فمفاهيم مثل العقل والكلمة والنور قد يفسرها كل شخص بطريقة تختلف قليلاً عن الآخر، رغم وجود تقارب عام في المعاني.

ويرجع ذلك إلى أن الفلسفة الهرمسية تقوم أساساً على العلم التأويلي؛ فهي تعتمد على ثقافة القارئ وخلفيته الفكرية ورؤيته الخاصة، ولا تقوم على حقائق محسوسة وثابتة لا يختلف عليها اثنان. وغالباً ما تتعامل مع مفاهيم رمزية وإشارات غامضة أو مبهمة نسبياً. غير أن هذا الغموض ليس عيباً في الفلسفة الهرمسية، بل هو في الحقيقة أحد عناصر تميزها؛ لأنه يفتح المجال للإبداع الفكري، ويتيح تعدد وجهات النظر، ويشجع على إعمال العقل والتدبر في أسرار الكون.

ومن ناحية أخرى، لا بد من الإشارة إلى أن هناك دراسات أكاديمية للفلسفة الهرمسية تتناولها بوصفها ظاهرة تاريخية وفكرية. وهذه الدراسات تتعامل مع الهرمسية باعتبارها

حقيقة تاريخية لها سياقها الثقافي والمعرفي. ولذلك فإن الحقائق التاريخية المتعلقة بالفلسفة الهرمسية لا تقبل التغيير أو التأويل الشخصي. فالكتاب الذي ندرسه الآن – وهو *متون هرمس* –يعرض في جوهره رؤية هرمس الخاصة وأفكاره وتأملاته في الوجود. أما الدراسات الأكاديمية فتتناول مسائل مثل نشأة الهرمسية وانتشارها وسياقها التاريخي.

فعلى سبيل المثال، من الحقائق الأكاديمية المعروفة أن الفكر الهرمسي انتشر في العالم الهلنستي، وكان له حضور واضح في مدينة الإسكندرية في مصر. وهذه حقائق تاريخية ثابتة. لكننا في هذا الشرح لا نتبع المنهج التاريخي الأكاديمي بقدر ما نتبع المنهج التأويلي؛ أي قراءة النصوص الهرمسية قراءة تأملية تسمح بإعمال الفكر وإفساح المجال للإبداع الشخصي لدى القارئ أو المستمع.

كما ينبغي التنبيه إلى نقطة أخرى مهمة، وهي أن الفلسفة الهرمسية قد اختلطت بالدين اختلاطاً وثيقاً. فعند قراءة النصوص الهرمسية نجد أن بعض مفاهيمها تظهر أيضاً في فلسفات أخرى. فعلى سبيل المثال، مفهوم العقل أو الكلمة في الفكر الهرمسي يقارب ما نجده عند ابن سينا في مفهوم العقل الأول، كما يقترب من مفهوم العقل الفعال عند أفلوطين في الفلسفة الأفلاطونية المحدثة. ويمكن أيضاً أن نجد أفكاراً مشابهة في بعض اتجاهات علم الكلام الإسلامي، أو في التصورات الدينية التي تتحدث عن الملائكة أو عن تجليات الحكمة الإلهية. ومن هنا يمكن القول إن الفلسفة الهرمسية كان لها تأثير واضح في عدد من الفلسفات والتقاليد الفكرية الأخرى.

والآن ننتقل إلى شرح النص الهرمسي نفسه. فقد وصلنا في الصفحة (39) إلى العبارة التي يقول فيها هرمس :(الذي أفاض عليَّ نظرة علوية) .وقد ذكرنا سابقاً أن المقصود بالنظرة العلوية هو النظرة الشاملة المحيطة التي ترى الأشياء في كليتها، لا النظرة الضيقة القاصرة.

ثم يقول هرمس بعد ذلك :(وأدعوك يا أتوم بخشية وتبجيل، متوسلاً ألا أضل طريق تلك المعرفة التي أبدعتها، حتى أرسل النور لأولئك الذين ما زالوا في الظلام) .وهنا يعلن

هرمس، بصورة عامة، خضوعه لله الواحد الأحد، الذي يسميه في نصوصه الأب الواحد .
فقوله :*(أدعوك بخشية وتبجيل)* يدل على الحالة الروحية التي تصيب الإنسان عندما يتأمل في الأمور الإلهية والربانية.

إن التأمل في أسرار الوجود وفي الحقائق الإلهية يبعث في النفس شعوراً عميقاً بالخشية والتبجيل. فالإنسان عندما يتأمل الكون ويتدبر نظامه وأسراره يصل إلى إدراك عظمة الخالق سبحانه وتعالى، ويشعر بعظمة هذا النظام الكوني المحكم. وعندها يدرك الإنسان ضآلة حجمه مقارنة بعظمة هذا الكون، فينتابه شعور بالرهبة والتعظيم.

ولهذا يقول هرمس إنه يتوسل إلى الله ألا يضل طريق تلك المعرفة التي أبدعها الله، حتى يستطيع أن يرسل النور إلى الذين ما زالوا في الظلام .والمقصود بالظلام هنا ظلام الجهل والانغماس في الشهوات والرغبات، وظلام الانشغال المفرط بالعالم المادي على حساب المعرفة الروحية.

فالإنسان الذي يغرق في الماديات ويغفل عن التأمل في الحقائق الإلهية يعيش في نوع من الضيق الداخلي والاضطراب النفسي. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى:
﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾.
ويمكن أن يقال أيضاً إن الذكر إذا كان خالياً من التأمل والتدبر العميق فقد يفقد كثيراً من أثره الروحي، لأن المقصود ليس مجرد الترديد، بل إدراك المعاني والتفكر فيها.

وبهذا المعنى، يبدو أن هرمس يرى أن على الإنسان الذي وصل إلى شيء من المعرفة الإلهية أن يحمل مسؤولية أخلاقية وروحية، وهي إيصال النور والمعرفة إلى الآخرين، حتى يخرجوا من ظلام الجهل والغفلة إلى نور الحكمة والمعرفة.

يدرك الإنسان الذي يصل إلى الأسرار الإلهية والأمور العلوية أن عليه مسؤولية نشر هذه المعرفة بين الناس، حتى يصبحوا أكثر وعياً وإدراكاً. فالمعرفة الحقيقية ليست شيئاً يُحتكر،

بل رسالة ينبغي إيصالها إلى الآخرين، حتى يخرجوا من الجهل إلى النور. غير أن هناك نوعاً آخر من المعرفة الخاطئة التي ينشرها الشيطان بين البشر، وهي معرفة تبدو في ظاهرها حكمة أو علماً، لكنها في حقيقتها مضللة.

فعند قراءة بعض كتب الفلاسفة أو الكتب التي تتحدث عن السحر والروحانيات، نجد أنهم يصلون إلى استنتاجات فلسفية يظنونها صحيحة، لكنها في الحقيقة خاطئة. ومن الأمثلة على ذلك بعض الكتب التي تتحدث عن أهمية السحر وطرق التواصل مع الأرواح، مثل كتاب "The Magus"لفرانسيس باريت .فهذا النوع من المعرفة يُصوَّر أحياناً على أنه علم نافع أو طريق إلى الحكمة، لكنه في الواقع علم ضار لا يعود على الإنسان بالفائدة.

فالسحر، في حقيقته، لا يجلب الخير للإنسان، بل غالباً ما يقوم على الإضرار بالآخرين. وكثير من كتب السحر مليئة بأمثلة تتعلق بالتفريق بين الزوجين، أو إيذاء الناس، أو التسبب بالمشكلات والاضطرابات، أو نشر الوهم والخداع. ولذلك فإن هذه العلوم ليست علماً نافعاً، بل هي علوم تضر الإنسان أكثر مما تنفعه. ومن هنا يمكن القول إن الشيطان قد أوهم بعض الناس بأن هذه العلوم مفيدة، بينما هي في حقيقتها طريق إلى الأذى والضلال.

وقد يقول بعض الناس إن السحر قد يكون أصله علماً علوياً أو مرتبطاً بعالم الملائكة، ويستدلون بقصة هاروت وماروت. لكن حتى لو كان أصل بعض المعارف مرتبطاً بعالم علوي، فإن تطبيقها في الأرض قد يكون شراً وفساداً. فالمشكلة ليست في الأصل النظري فحسب، بل في كيفية استخدام هذه المعرفة وأثرها في حياة الناس.

ثم ينتقل هرمس في النص إلى وصف ردود أفعال الناس تجاه تعاليمه، فيقول إنه بدأ الحديث بالقوة التي مُنحت له، فكان هناك من يضحك على البعد من كلماته، وكان هناك من يسجد بين يديه. وهذه الحالة طبيعية بين الناس؛ فبعضهم يقبل التعاليم الربانية باهتمام واحترام، بينما يسخر منها آخرون ويظنون أنها خرافات. غير أنهم لا يدركون أن العالم العلوي عالم حقيقي، وأن ارتباط الإنسان به هو أساس وجوده ومعناه.

فالعالم الأرضي لا ينفصل عن العالم العلوي، والإنسان لا يكون ذا قيمة حقيقية إذا لم يكن له ارتباط بذلك العالم الأعلى. وعندما يذكر هرمس أن بعض الناس سجدوا بين يديه، فإن هذا السجود لا يعني عبادته، بل يدل على الطاعة والاحترام والتقدير لما يحمله من معرفة.

وقبل متابعة النص، يتطرق الكاتب إلى فكرة أخرى، وهي فكرة الغرور الذي قد ينشأ عن العلم .فقد يؤدي العلم أحياناً إلى نوع من التعالي لدى بعض العلماء، فيظنون أنهم قادرون على تفسير كل شيء بالعقل وحده. وعند قراءة بعض المفكرين المعاصرين، مثل نيل ديغراس تايسون أو ستيفن هوكينغ أو ريتشارد دوكنز أو كريستوفر هيتشنز، نجد أنهم يعتمدون اعتماداً كاملاً على التفسير المادي للكون، ويرفضون أي بعد روحي أو غيبي.

غير أن هذا النوع من التفكير يعتمد على الظواهر المادية وحدها، وعلى المعادلات الرياضية والتجارب العلمية التي تتعلق بالعالم الطبيعي. وهو يهمل جانباً مهماً في الإنسان، وهو المعرفة القلبية أو البعد الروحي. فالقلب أيضاً مصدر من مصادر المعرفة، وهو الذي يربط الإنسان بالخالق ويمنحه الطمأنينة والسلام الداخلي.

ولهذا نجد أن الإيمان يمنح الإنسان قوة نفسية في مواجهة المصائب. فعندما يتعرض المؤمن لمحنة أو يفقد شخصاً عزيزاً، فإنه يلجأ إلى الله ويقول إن هذا قضاء وقدر، مما يخفف عنه الألم. أما الإنسان الذي لا يمتلك مرجعية روحية أو دينية، فقد يجد نفسه غارقاً في الحزن والقلق دون أن يجد ما يخفف عنه ذلك.

ثم يعود النص إلى كلام هرمس حين يقول :(وطلبت منهم القيام حتى يتلقوا بذور الحكمة التي أود أن أغرسها في نفوسهم بتلك التعاليم) .وهنا يشجع هرمس أتباعه على الاستعداد لتلقي الحكمة، لأن الحكمة تشبه البذور التي تُزرع في النفس، ثم تنمو مع الزمن وتثمر معرفة وفهماً أعمق للحياة.

ثم يقول :(أنصتوا يا من خُلقتم للفناء، وإن توانيتُم في الإصغاء ستتخطاكم كلماتي لتعود إلى المنبع الذي منه أتت) .وفي هذه العبارة يذكّر هرمس الإنسان بحقيقته؛ فالإنسان مخلوق فانٍ ولن يبقى في هذا العالم إلى الأبد. ومع ذلك فإن روحه تحمل بعداً خالداً يتجاوز حدود الحياة المادية.

ولهذا يدعوهم إلى الإنصات والانتباه، لأن الحكمة قد تمر بالإنسان مرة واحدة، فإذا لم ينتبه لها ضاعت منه وعادت إلى مصدرها. وهذا المعنى قريب مما يعبر عنه المثل العربي القائل : (اللبيب من الإشارة يفهم)؛ أي أن الإنسان الحكيم يلتقط المعنى حتى من التلميح، ولا يحتاج إلى شرح طويل.

الإنسان مخلّد بفكره وروحه، لكنه فانٍ بجسده وهيئته المادية، أو كما يعبر بعض الفلاسفة بهيوليته المادية. ولذلك يحذّر هرمس مستمعيه قائلاً :(وإن توانيتُم في الإصغاء ستتخطاكم كلماتي) .ويُعدّ هذا جزاءً عادلاً لكل من لا يُصغي إلى الحكمة الربانية ولا يهتم بالأمور الرحمانية. فإذا لم ينصت الإنسان للحكمة حين تُعرض عليه، فإنها تمرّ به دون أن ينتفع منها.

ويتابع هرمس قوله :(وإن توانيتُم في الإصغاء ستتخطاكم كلماتي لتعود إلى المنبع الذي منه أتت) .والمقصود بذلك أن هذه الكلمات قد لا تتكرر مرة أخرى، ولذلك ينبغي لمن يسمعها أن يكون منتبهاً ويقظاً. ففي هذا القول إشارة لطيفة إلى أن الأسرار العلوية والمعارف الروحية لا تُقال دائماً بصراحة ووضوح، بل تُدرك غالباً بالإشارات والرموز. فالكون نفسه مليء برسائل مبطنة تظهر في صور مختلفة، ومن يستطيع التأمل فيها يدرك شيئاً من تلك الأسرار.

ثم ينتقل النص إلى موضع آخر في الصفحة (42)، حيث يقول هرمس :(استجمع شتات أفكارك) .وهذه عبارة مهمة للغاية؛ إذ تدل على ضرورة تركيز الفكر وتحريره من التشتت.

فالإنسان ينبغي له أن يطرد من ذهنه كل ما يشوش تفكيره أو يبعده عن الطريق الصحيح. والسبب في ذلك أن العالم المادي قد يلهي الإنسان ويشغله عن الحقائق الأسمى. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا المعنى بقوله تعالى:

﴿وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب﴾.

فالمطلوب من الإنسان ألا ينشغل بالدنيا انشغالاً يبعده عن التأمل في الحقائق الكبرى.

ويكمل هرمس قوله :(وانتبه بكامل وعيك لمعرفة كينونة أتوم) .والمقصود هنا أن الإنسان ينبغي أن يسعى إلى معرفة الله تعالى، الذي يعبّر عنه هرمس باسم (أتوم). وهذه المعرفة ليست معرفة بسيطة أو سطحية، بل تحتاج إلى وعي عميق وبصيرة نافذة.

ومن أسماء الله الحسنى أنه الظاهر والباطن؛ فهو باطن من حيث ذاته وحقيقته التي لا يمكن إدراكها إدراكاً كاملاً، وهو ظاهر من حيث آثاره في الكون ومخلوقاته. فعندما ينظر الإنسان إلى خلق الله – إلى الأشجار والبحار والنجوم والكائنات – يدرك من خلال هذا الخلق أن وراءه خالقاً عظيماً. أما حقيقة ذات الله سبحانه وتعالى وماهيته فذلك أمر لا يمكن للعقل البشري أن يحيط به.

ولهذا يقول هرمس إن إدراك هذه الحقيقة يحتاج إلى بصيرة عميقة .فالمعرفة الإلهية لا تُنال بالجهد العقلي وحده، بل هي أيضاً هبة إلهية يمنحها الله لمن يشاء من عباده. فالله سبحانه وتعالى يهب بعض عباده قدرة خاصة على إدراك المعاني الروحية والحقائق العلوية.

ويشبّه هرمس هذه المعرفة بالفيض الذي ينحدر كالمياه في الشلال؛ فهي تأتي من مصدر علوي وتتدفق على الإنسان. ولذلك يقول إن سرعتها تفوق قدرة الإنسان على متابعتها، حتى إنها قد تترك المتعلم والمعلم وراءها. والمقصود من ذلك أن معرفة الله تعالى لا يمكن للإنسان أن يحيط بها إحاطة كاملة، مهما بلغ من العلم أو الحكمة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى:
﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.
فمهما ازداد علم الإنسان، فإنه يبقى محدوداً مقارنة بعظمة المعرفة الإلهية.

ثم يقول هرمس :(إدراك أتوم شاق وتحديده مستحيل) .فإدراك الله تعالى إدراكاً كاملاً أمر صعب بل مستحيل، لأن الإنسان كائن ناقص وفانٍ، بينما الله كامل وخالد. ولا يستطيع الناقص أن يحيط بالكامل إحاطة تامة.

ثم يضيف هرمس وصفاً آخر لأتوم، فيقول إنه الواحد الصمد، غير متحرك، ومع ذلك فهو أصل الحركة ذاتها .وهذه الفكرة تذكّر بما ورد في الفلسفة الأرسطية حول (المحرّك الأول)، الذي يحرّك كل شيء دون أن يتحرك هو نفسه. فلو كان الله يتحرك كحركة المخلوقات لكان حادثاً، والحوادث لها بداية، بينما الله سبحانه وتعالى أزلي لا بداية له.

ولذلك فهو لا يشوبه نقص، بل هو الباقي دائماً والخالد أبداً. ويمكن الاستدلال على بقاء الله فلسفياً بأن ما له بداية له نهاية، وما له نهاية كان له بداية. أما ما ليس له بداية فليس له نهاية. وبما أن الله سبحانه وتعالى أزلي بلا بداية، فإنه باقٍ بلا نهاية.

ويقول هرمس أيضاً إن أتوم هو الواقع الحق والمطلق الأكمل .أي أن الله سبحانه وتعالى هو الحقيقة المطلقة والكمال الأعلى، لأنه أصل الوجود ومصدر الحكمة والنور. فمن غير المعقول أن يكون خالق هذا الكون العظيم ناقصاً أو عاجزاً، بل لا بد أن يكون كاملاً مطلق القدرة.

وفي هذا السياق يورد بعض الفلاسفة إشكالات فلسفية تتعلق بمفهوم القدرة الإلهية، مثل السؤال المعروف: هل يستطيع الله أن يخلق صخرة لا يستطيع حملها؟ وهذه الأسئلة تُطرح عادة على سبيل الجدل الفلسفي، لكنها في حقيقتها تعكس محاولة العقل البشري المحدود فهم مفهوم القدرة المطلقة، وهو مفهوم يتجاوز حدود التفكير البشري المعتاد.

السؤال الذي يُطرح أحيانًا :*هل يستطيع الله أن يخلق حجرًا لا يستطيع حمله؟* أرى أن هذا السؤال في حقيقته سؤال غير صحيح في أساسه؛ لأنه يفترض ضمنًا أن الله سبحانه وتعالى كائن مادي، وأنه يحمل الحجر كما تحمله الكائنات المادية. وحمل الحجر فعل مادي مرتبط بالأجسام، بينما الله سبحانه وتعالى متعالٍ عن المادة ومتجاوز لخصائصها، فلا يُتصور أن يتخذ شكلًا جسديًا ليحمل حجرًا أو يقوم بفعل مادي من هذا النوع.

إن الله سبحانه وتعالى، بحسب هذا التصور، هو جماع الأفكار التي لا تدركها الحواس. فالحواس البشرية قاصرة عن إدراك حقيقته، لأن كل ما هو غامض وخفي وباطن يتجاوز نطاق الإدراك الحسي. لذلك فإن الله لا يظهر مباشرة للحواس، بل يُعرف من خلال آثاره في الخلق ومن خلال النظام الكامن في الكون.

ومن هنا فإن المعرفة البشرية، مهما بلغت من العمق، لا تستطيع أن تدرك حقيقة الله إدراكًا كاملًا. فحتى أعبد العابدين وأزهد الزاهدين لا يستطيعون الإحاطة بصفاته على وجه التمام؛ لأن الله متخفٍ عن الأنظار، وباطن عن الإدراك المباشر. ولهذا يمكن تلخيص هذه الفكرة بأن الله سبحانه وتعالى باطن لا يُدرك إدراكًا كاملًا بالعقل أو الحواس.

ويرى هرمس في هذا السياق أن الله هو الفكر الأول، وهو أعظم من أن يحده اسم أو وصف. فاسم (أتوم) مثلًا ليس إلا تسمية بشرية، وكذلك سائر الأسماء التي أطلقها البشر على الخالق. فالاسم في ذاته اختراع بشري لغوي، مثل أسماء أخرى كـ (يهوه) أو (أتوم)، وحتى لفظ (الله) من الناحية اللغوية له جذور اشتقاقية في اللغة. لكن الخالق في حقيقته أعظم من أن تحيط به الأسماء أو أن تحده التعريفات.

ومع أن الله باطن وخفي عن الإدراك المباشر، فإنه في الوقت ذاته متجلٍ في كل شيء من خلال آثاره. فعندما ينظر الإنسان إلى الشجرة، أو إلى البحر، أو إلى الإبل، أو إلى السماء، ويدرك ما فيها من نظام وإتقان، فإنه يدرك من خلالها عظمة الخالق. وهذا لا يعني عقيدة الحلول أو الاتحاد، بل يعني أن آثار النظام والإبداع في الكون تدل على خالق منظم حكيم.

إن معرفة الله في هذا التصور تتحقق بالفكرة أو بالقلب، بينما تدرك العيون آثاره في الآفاق. فالإنسان يرى مظاهر النظام في الكون، لكنه لا يرى ذات الخالق نفسها؛ لأن الله غير محدود بأفق مادي ولا يُحاط به إدراك حسي.

ولهذا يقال إن الله لا جسد له، لأن الجسد المادي يتكون من أجزاء ويعتريه التعب والهرم والمرض، بينما الله منزه عن هذه الصفات. فالجسم المادي مركب وقابل للانقسام، أما الله فليس مركبًا ولا مكونًا من أجزاء.

ومع ذلك فإن آثار الله تظهر في كل شيء. فالكون قائم على قوانين دقيقة، وخاصة في العلوم مثل علم الفلك، حيث نجد حركة الكواكب والنجوم محكومة بمعادلات رياضية دقيقة ونظام محكم. وهذا النظام الدقيق يدل على وجود خالق حكيم، لأن الكون ليس عشوائيًا بل قائم على الضبط والتنظيم والإتقان.

ومن هنا يُقال إن روح النظام والدقة والإتقان التي تظهر في الكون هي دليل على الخالق. فكل شيء في الوجود يعكس أثرًا من آثار الحكمة الإلهية، وليس في الكون شيء خارج عن هذا النظام.

ولهذا يقال إن الله لا اسم له بالمعنى الحقيقي، لأن جميع الأسماء يمكن أن تشير إليه. فكل اسم يدل على كمال أو حقيقة في الوجود يمكن أن يكون دالًا على جانب من جوانب الحقيقة الإلهية. ولذلك يمكن أن يُعرف الله من خلال كل مظاهر الوجود.

فإذا نظر الإنسان إلى السماء، أو إلى البحر، أو إلى الإنسان، أو إلى الحيوان، فإنه يدرك أن وراء هذا الكون خالقًا أبدع كل شيء وأتقنه. فالله هو أساس هذا الوجود ومنبع كل ما فيه.

أما مسألة السؤال القديم *بمن خلق الله؟* فهي مسألة ناتجة عن تصور بشري للوجود، لأن كل ما في العالم له بداية، فيتصور الإنسان أن الله كذلك. لكن الحقيقة أن الله ليس له بداية وليس له خالق؛ فهو الأصل الذي صدر عنه كل شيء.

وهذه الفكرة يصعب على العقل البشري إدراكها إدراكًا كاملًا، لأن العقل معتاد على فهم الأشياء ضمن حدود الزمان والبداية والنهاية. لكن يمكن القول إن الله هو مصدر كل شيء، وأن كل ما في الكون مخلوق منه، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

ويضرب هرمس مثالًا رياضيًا لتقريب هذه الفكرة، فيشبه الله بالعدد الواحد. فالعدد واحد يبقى واحدًا مهما ضُرب في نفسه أو قُسم، وهو أصل جميع الأعداد. فالعدد اثنان هو مثنى الواحد، والعدد ثلاثة هو تكرار الواحد ثلاث مرات، وكذلك بقية الأعداد.

وبهذا المعنى يكون الواحد حاضرًا في جميع الأعداد، كما أن أثر الخالق حاضر في جميع المخلوقات. فكل ما في الكون يدل على مصدره الأول، كما أن كل الأعداد تعود في أصلها إلى الواحد.

وبذلك يريد هرمس أن يبين أن الله هو الأصل الذي تنبع منه كل الأشياء، وأن آثار وجوده تظهر في كل مكان من الكون.

وإلى هنا نتوقف، على أن نكمل الحديث في الدرس القادم بإذن الله.

المقالة 6 من شرح العلوم الهرمسية

بسم الله الرحمن الرحيم....

نبتدئ اليوم، بإذن الله، إكمال شرح العلوم الهرمسية. وقد وصلنا في القراءة إلى الصفحة (42) من كتاب (متون هرمس: حكمة الفراعنة المفقودة)، ترجمة عمر الفاروق، وتأليف بيتر جاندي. وقد توقفنا عند النص الذي يقول :*(أتوم كامل كمثل الواحد الذي يبقى واحدًا لو ضُرب في ذاته أو قُسم عليها، ومنه تأتي كافة الأرقام)*.

وقد بيّنا سابقًا أن المقصود من هذا النص هو التشبيه؛ فالعدد واحد هو أصل جميع الأعداد. فالاثنان هما اثنان من الواحد، والثلاثة مثلث الواحد، والأربعة مربع الواحد، والخمسة مخمّس الواحد، وكذلك بقية الأعداد. فلو أخذنا مثلًا الرقم 960، فإنه يتكوّن من تسعمائة وستين واحدًا. فالأصل في جميع الأعداد هو الواحد.

ومن هذا التشبيه يريد هرمس أن يوضح أن جميع الموجودات في الكون تعود في أصلها إلى الواحد. وكما أن كل الأعداد تحتوي على الواحد في أصلها، كذلك كل الموجودات التي حولنا تحتوي على الواحد. ويُقصد بذلك أن روح الله موجودة في كل شيء. وقد أوضحنا سابقًا أن المقصود بوجود روح الله في الأشياء ليس عقيدة الحلول والاتحاد، بل المقصود أن آثار الله تظهر في كل شيء، وأن النظام والإبداع الإلهي يتجليان في جميع المخلوقات.

ثم يقول هرمس :(أتوم هو كل الكل، ويحيط بكل شيء، وهو الواحد الذي ليس كمثله شيء، هو الكل وليس هو الكثرة) .وهذه العبارة تلخص كثيرًا مما تحدثنا عنه سابقًا. فقول هرمس : *(أتوم هو كل الكل)* يعني أن أتوم هو الأساس والمصدر والمحصلة النهائية لكل شيء في الوجود. فهو موجود في كل شيء، كما أن آثاره تظهر حتى في أصغر الأشياء.

أما قوله :*(وهو الواحد الذي ليس كمثله شيء)*، فالمترجم هنا استخدم تعبيرًا قريبًا من التعبير القرآني المعروف :(ليس كمثله شيء)، في إشارة إلى وحدانية الله وتنزهه عن المماثلة.

ثم يقول هرمس :*(هو الكل وليس هو الكثرة)* .والمعنى أن الله سبحانه وتعالى هو أساس الأشياء وسبب وجودها، لكنه ليس هو نفس هذه الأشياء بذاتها. فالمخلوقات ليست هي الله، وإنما هي مخلوقة منه وتدل عليه. فآثار الله وروح النظام الذي أودعه في الكون تظهر في هذه الأشياء، لكنها ليست هي ذات الإله.

ويقول هرمس أيضًا :(الوحدانية تشتمل على كل الوحدات، ولكنها ليست أشياء كثيرة كما تراها متفرقة) .فالإنسان يرى في العالم أشياء متعددة ومتفرقة؛ يرى الشجرة والحجر والإنسان والبحر والسماء والكواكب والنجوم والهواء وسائر الموجودات. لكن هذه الأشياء، على كثرتها، ترتبط بنظام واحد وتصدر عن مصدر واحد.

فهذه الموجودات كلها تدل على الخالق من خلال النظام الذي خُلقت عليه. فهي تشترك في مظاهر الوجود والنظام والإبداع، لكنها ليست هي ذات الإله. فمبدأ الوحدة يشمل جميع الموجودات، لكنه لا يعني أن هذه الموجودات هي الله ذاته.

ويمكن توضيح ذلك بمثال بسيط: فلو نظرنا إلى جزرة مثلًا، فإن الوحدانية ليست هي الجزرة نفسها، بل هي النظام الذي خُلقت به هذه الجزرة. وكذلك لو نظرنا إلى مبنى منظم ومرتب، فإن مبدأ الوحدة ليس هو المبنى ذاته، بل هو النظام والترتيب الذي قام عليه.

إذن فمبدأ الوحدة يشمل جميع الموجودات، لكنه ليس هذه الموجودات بعينها. ولهذا يقول هرمس :(أما حين تراها متعلقة بالواحد ونابعة من الواحد، يمكنك إدراك وحدتها) .أي عندما ينظر الإنسان إلى النظام والترتيب في الكون، ويرى كيف ترتبط الأشياء بعضها ببعض، يدرك أنها جميعًا صادرة عن مصدر واحد.

فجميع الموجودات ترتبط ببعضها في نظام واحد، ويجمعها تناسق الوجود من أعلاه إلى أسفله، وكلها تخضع لإرادة أتوم. وهذا تأكيد على أن الكون منظم بنظام واحد دقيق.

ولهذا يقول هرمس :(الكون واحد، والشمس واحدة، والقمر واحد، والأرض واحدة؛ فهل يجوز الظن بتعدد الآلهة؟) .وهذا النص مهم جدًا؛ لأنه يدل على أن الفكر الهرمسي يميل إلى إثبات وحدانية الإله وينكر تعدد الآلهة.

فالهرمسية لا ترى في تعدد الآلهة تفسيرًا صحيحًا للكون، بل تؤكد أن الإله واحد. فهي تقر بوحدانية الإله، وترى أن جميع الخلائق مرتبطة بهذا الإله الواحد، ليس على أساس عقيدة الحلول والاتحاد الصوفية، بل على أساس النظام الإلهي الذي أودعه الله في الكون.

ثم يقول هرمس إن القول بتعدد الآلهة محال، لأن الإله واحد. وهذا نص واضح يدل على أن الفكر الهرمسي يعترف بوحدانية الإله.

ويقول أيضًا :(أتوم وحده هو الباري لكل ما هو ثابت ولكل ما يتغير) .وكلمة *الباري* هنا بمعنى الخالق أو الموجد. فالمقصود أن أتوم هو الذي خلق كل شيء، سواء كان ثابتًا أو متغيرًا.

ويفهم من هذا أن الكون قائم على ما يمكن تسميته قانون الأضداد .فالعالم يحتوي على الثبات والحركة معًا. فهناك أشياء ثابتة وأخرى متحركة، بل إن الشيء الواحد قد يجمع بين الثبات والحركة في أوقات مختلفة.

فمثلًا الإنسان يتحرك في حياته اليومية، ثم يسكن حين ينام. وكذلك الحيوانات والطيور تتحرك ثم تسكن. والمطر يتحرك من مكان إلى آخر ثم يتوقف. وكذلك الشمس —— بحسب التصور الفلكي القديم —— تتحرك في السماء ثم تغيب تحت الأفق.

وهكذا نجد أن الحركة والسكون يجتمعان في الكون كله. وهذا مثال على قانون الأضداد الذي يحكم العالم. فالإنسان مثلًا يجتمع فيه التحرك والسكون، والخير والشر، والجانب الروحي

والجانب المادي. ولذلك فإن طبيعة الإنسان نفسها تعكس هذا القانون القائم على اجتماع الأضداد في الكائن الواحد.

فبالتالي، لكي يتحقق التوازن في الحياة لا بد من وجود الأضداد. فمثلًا، إذا شعر الإنسان بالحرارة والاختناق فإنه يلجأ إلى مكان بارد، أو يشرب كأسًا من الماء، أو يبحث عن جو معتدل. وهكذا ينبغي للإنسان أن يوازن دائمًا بين المتضادات. وهذا هو حال الكون كله؛ فالإفراط في شيء واحد ليس محمودًا، والاستمرار على حالة واحدة دائمًا يؤدي إلى التطرف. أما التوسط فهو خير الأمور، ولا يتحقق التوسط إلا بوجود ضدين.

ووجود الضدين يقتضي أن يحل أحدهما محل الآخر في أوقات مختلفة. فمثلًا عندما يشعر الإنسان بالنعاس فإنه ينام، وعند النوم يختفي الاستيقاظ ويحل النوم محله. ثم إذا استيقظ عاد الاستيقاظ ليحل محل النوم. ويمكن تطبيق هذا المثال على كثير من أمور الحياة المختلفة.

ومن هنا يقول هرمس :(أتوم وحده هو الباري لكل ما هو ثابت ولكل ما يتغير) .أي أن أتوم — وهو الخالق — هو الذي أوجد كل ما في الكون، سواء ما كان ثابتًا أو ما كان متغيرًا.

ثم يقول هرمس: إذا كنت ترى هذا الكلام غير معقول، فتأمل نفسك. فأنت ترى وتسمع وتتكلم وتلمس وتتذوق وتمشي وتفكر وتتنفس، وكل هذه الأفعال تصدر منك، ومع ذلك لا ترى فيها غرابة. فالإنسان يقوم بأفعال متعددة ومختلفة، لكنه مع ذلك يظل شخصًا واحدًا.

ويريد هرمس من هذا المثال أن يوضح فكرته عن وحدة الوجود من حيث المصدر. فالإنسان قد يغضب أحيانًا، ويفرح أحيانًا أخرى، وقد يحزن أو يهدأ، لكنه في جميع هذه الحالات يبقى الشخص نفسه. فمثلًا قد تتغير حالاتي النفسية، لكن اسمي وهويتي يظلان كما هما.

وبالمثل ـــ في تصور هرمس ـــ فإن أتوم تظهر آثاره في جميع المخلوقات، وتظهر روحه في مختلف الموجودات، ومع ذلك يظل هو واحدًا متميزًا عنها. فوجود آثار الخالق في المخلوقات لا يعني أن الخالق هو نفس هذه المخلوقات.

ولهذا يقول هرمس إن الكائن الذي يمتلك هذه الملكات المختلفة يظل كائنًا واحدًا يحملها جميعًا. فكما أن الإنسان يقوم بأفعال متعددة لكنه يبقى شخصًا واحدًا، كذلك أتوم ـــ في التصور الهرمسي ـــ هو الأصل الذي تظهر آثاره في كل الموجودات، مع بقائه واحدًا.

ثم يضرب هرمس مثالًا آخر لتوضيح كيفية خلق أتوم للأشياء. فيقول: إذا أردت أن تفهم كيف خلق أتوم الكون، فتخيل فلاحًا يبذر البذور في الأرض؛ فيزرع القمح في مكان، والشعير في مكان آخر، ويغرس شجرة عنب هنا وشجرة تفاح هناك.

ويريد هرمس بهذا المثال أن يبين أن الخلق يتم بتنوع الموجودات وتعددها، وأن النظام والإبداع يظهران في كل نوع من أنواع الكائنات. فكما أن الفلاح يزرع أنواعًا مختلفة من النباتات، كذلك يظهر النظام الإلهي في مختلف الموجودات في الكون.

ثم يقول هرمس إن أتوم غرس الخلود في السماء، والتغير في الأرض حيث تنتشر الحياة والحركة. وهنا ينبغي التوضيح أن السماء أيضًا ليست ثابتة تمامًا، بل يحدث فيها تغير كذلك؛ فالكواكب والنجوم تتحرك وتختلف مواقعها. لكن هرمس كان يقصد بثبات السماء دوام وجودها واستمرارها.

ويبدو أن هرمس ـــ بحكم انتمائه إلى الفكر القديم ـــ كان متأثرًا بالمعتقدات اليونانية أو الصابئية التي كانت ترى الكواكب كائنات خالدة أو ذات طبيعة إلهية. أما في العقيدة الإسلامية فنحن نعتقد أن السماء نفسها ستزول يومًا ما، لأنها مخلوقة مثل غيرها.

ومع ذلك فإن هرمس يرى أن السماء والأرض هما أعظم ظاهرتين في الكون تدلان على وجود أتوم وعلى مخلوقاته. فالنظام الموجود فيهما، وما فيهما من حياة وحركة، يدل على وجود الخالق وعلى حكمته.

ومن هنا يمكن القول إن السماء والأرض، بكل ما فيهما من موجودات، تشيران إلى الخالق وتدلان على النظام الذي خلقهما به. فالحياة التي فيهما والنظام الذي يحكمهما هما دليل على وجود الخالق سبحانه وتعالى.

وفي هذا السياق أقول إن الفلسفة الهرمسية مليئة بالرموز، ولذلك لا ينبغي فهم نصوصها على ظاهرها دائمًا، بل ينبغي فهمها من خلال التأويل والرمزية. فالتأويل عنصر مهم في فهم الفكر الهرمسي، ومن أراد أن يفهمه فهمًا صحيحًا فعليه أن ينظر إلى معانيه الرمزية لا إلى ظاهر الألفاظ فقط.

ومع ذلك فإن الفلسفة الهرمسية ـــ في مجملها ـــ ليست معقدة جدًا، بل تتسم بنوع من البساطة والوضوح. فهي تعتمد على أفكار عامة عن الكون والنظام والوجود، لكنها تعرضها بلغة رمزية قد تجعل البعض يمر عليها مرورًا سريعًا دون أن يدرك ما فيها من معانٍ.

ثم يقول هرمس :(ليس أتوم أبًا لأنه خلق كل الأشياء، وليس إنسانًا يجاهد لميلاد طفل استمرارًا للحياة) .وقد يظن البعض أن في هذا الكلام تناقضًا، لأن هرمس تحدث سابقًا عن أتوم باعتباره الأب الواحد.

لكن المقصود هنا أن أتوم ليس أبًا بالمعنى المادي أو البشري للأبوة. فنحن نعلم أن الأبوة البشرية تقوم على الولادة والتكاثر الجسدي، أما الأبوة التي يقصدها هرمس فهي أبوة روحية، أي بمعنى أنه مصدر الوجود وليس أبًا جسديًا للمخلوقات.

ولهذا يقول أيضًا إن أتوم ليس إنسانًا يجاهد من أجل ولادة طفل لاستمرار الحياة. أي أن الخالق لا يبذل جهدًا جسديًا كما يفعل البشر، بل إن الكون يسير وفق قوانين كونية وضعها الخالق منذ البداية.

فمثلًا، إذا ألقى إنسان نفسه من مكان مرتفع فسيموت بسبب قانون الجاذبية أو بسبب القوانين الطبيعية التي تحكم الكون. وهذا لا يعني أن الخالق غائب عن الكون، بل يعني أنه وضع قوانين تحكمه وتسير وفقها الحياة.

وقد تتدخل القدرة الإلهية أحيانًا في الكون، لكن حتى هذا التدخل يمكن أن يُفهم ضمن إطار القوانين الكونية التي أرادها الله. فالله يعلم كل ما يحدث في الكون، ويتدخل فيه متى شاء.

ثم يقول هرمس إن أتوم يعمل في الطبيعة وفق قانون الضرورة ليبدع الموت والنشور من جديد، وليحافظ على استمرار الخلق. وهنا يظهر أن الكون في نظره قائم على دورة مستمرة من الحياة والموت والتجدد، حيث تتجدد الكائنات باستمرار وتستمر حركة الخلق في العالم.

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه العون والاستعانة نبتدئ اليوم ـ بإذن الله ـ إكمال شرح الفلسفة الهرمسية أو ما يُسمّى بالعلوم الهرمسية. وقد وصلنا إلى الصفحة (44) من كتاب (متون هرمس: حكمة الفراعنة المفقودة) بترجمة عمر الفاروق. وقد تحدثنا في المحاضرات السابقة عن نظرية الإبداع والترتيب والتنظيم في الفكر الهرمسي؛ إذ ذكرنا أن روح الله موجودة في كل شيء، غير أن وجود هذه الروح لا يعني حلول الله في الموجودات أو القول بعقيدة وحدة الوجود بمعناها الحرفي. بل المقصود أن الله سبحانه وتعالى، كما أبدع الكون، أبدع كذلك الموجودات الأرضية، وأن هذا الإبداع والنظام والترتيب الموجود في الكون إنما يدل على صفات الكمال الإلهي.

وقد تحدثنا أيضًا في المحاضرات السابقة عن قانون الضرورة، وهو أن الله أوجد في الكون قوانين تسير وفق مقتضى الضرورة، أي أن الكون يسير وفق نظام محدد وقوانين ثابتة،

بحيث يبدو وكأنه يدبّر نفسه بنفسه، مع بقاء قدرة الله سبحانه وتعالى على التدخل في هذا النظام متى شاء.

ثم نصل إلى الفقرة الثانية من الصفحة (44)، حيث يرد نص يقول :(للكشف عن حكمته، اعلم أن ما تراه العين أشباح وأوهام) .يريد هرمس من خلال هذا القول أن يدعونا إلى التأمل العميق في العالم المادي، حتى نستطيع الوصول إلى فهم العالم الرباني والروحاني. فهو يشير إلى أن حكمة الله لا تنكشف للإنسان إذا ظل غارقًا في العالم المادي والشهوات والظواهر الحسية.

والمقصود بقول هرمس إن ما نراه (أشباح وأوهام) ليس أن هذه الأشياء غير موجودة مطلقًا، بل يقصد أنها غير ثابتة ولا باقية؛ إذ إن كل شيء في هذا العالم يتغير باستمرار. فالشجرة التي كانت موجودة بالأمس ليست هي نفسها اليوم، لأن التغير يطرأ عليها في كل لحظة.

وقد عبّر عن هذه الفكرة أحد فلاسفة اليونان عندما قال :(إنني أضع قدمي في النهر ثم أرفعها، فلا النهر نهر ولا القدم قدمي) .والمقصود أن النهر دائم الجريان، فالماء الذي لامس القدم قد تغير عندما رفعت القدم منه، كما أن القدم نفسها تغيرت عندما أصبحت رطبة بعد أن كانت جافة. وهذا ما يُعرف بقانون الصيرورة والتغير، وهو قانون أساسي في الفكر الفلسفي والهرمسي.

ومن خلال هذا القانون يمكننا أن ندرك أن الأشياء في العالم المادي ليست ثابتة على حال واحد، بل هي في تغير دائم، ولذلك فإن وجودها وجود نسبي غير ثابت. ويظهر هذا المعنى بوضوح عند التأمل في الزمن؛ فالحاضر الذي نتحدث عنه الآن يتحول فورًا إلى ماضٍ، وليس هو مستقبلًا أيضًا، ولذلك فإن الحاضر نفسه يكاد يكون غير قابل للإمساك.

وينطبق هذا الأمر كذلك على الأشياء المادية الأخرى. فمثلًا، الكتاب الذي نشتريه جديدًا يصبح بعد عشرين سنة كتابًا قديمًا. وخلال هذه السنوات تتغير حالته شيئًا فشيئًا، حتى لو كان التغير بطيئًا وغير ملحوظ في كل لحظة. ومع مرور الزمن يتجه هذا التغير نحو الاهتراء والقدم.

ومن هنا يرى هرمس أن الأشياء المادية قد تُعدّ نوعًا من الأوهام؛ فهي أوهام من جهة أنها غير باقية، وأوهام من جهة أخرى لأنها تخدع العين والعقل فتجعل الإنسان يظن أنها ثابتة ودائمة، بينما هي في الحقيقة فانية ومتغيرة. ولذلك ينبغي على الإنسان ألا ينشغل بها انشغالًا كاملًا، بل يجعلها وسيلة للتأمل في الحقيقة الإلهية العليا.

ثم يقول هرمس :(أما الفكر فهو الحقيقة، وأفكار الجمال والجلال هما اسماه، وإن لم ترهما العين) .والمقصود بالفكر هنا ليس الفكر السياسي أو الاجتماعي أو التاريخي، مثل أفكار بعض الفلاسفة ككارل ماركس أو غيره، كما أنه لا يقصد الأفكار الفاسدة أو الشريرة التي قد تمر في ذهن الإنسان.

بل المقصود بالفكر هو التدبر في العالم الرباني والروحاني، والتأمل في خلق الله وعظمته. فهذا التدبر يقود الإنسان إلى الاعتراف بعظمة الخالق، وإلى الإيمان بألوهيته، وإلى إدراك وجوب عبادته، كما يقود الإنسان إلى السعي نحو الاتصال بالمصدر الإلهي والارتقاء الروحي.

وبذلك يصبح الفكر الحقيقي هو الوسيلة التي يرتقي بها الإنسان في مراتب الوجود، فيتحول من كائن مادي محدود الإدراك إلى كائن واعٍ بالحقيقة الإلهية.

أما أفكار الجمال والجلال التي يتحدث عنها هرمس فهي تشير إلى النظام والترتيب الذي خلق الله به الكون. فهذا النظام الكوني الدقيق هو في ذاته تعبير عن الجمال والعظمة. فعندما

يتأمل الإنسان البحر مثلًا وما فيه من مخلوقات ونظام دقيق، فإنه يقول: سبحان الله، ما أعظم هذا الجمال الذي أبدعه الله.

ومن هنا يرى هرمس أن الحقيقة ليست في المادة نفسها، ولا في صفاتها الحسية مثل اللون والطول والعرض، بل الحقيقة تكمن في النظام والترتيب والإبداع الذي يظهر من خلالها.

ثم يقول هرمس :(وطالما عجزت العين عن رؤية كينونة أتوم، فإنها لا تستطيع رؤية الأفكار العظمى التي يتصف بها أتوم وحده) .والمقصود بالعين هنا ليس العين الجسدية فقط، بل العقل أيضًا، إذ إن العقل يرى الحقائق كما ترى العين الأشياء المادية.

فإذا كان الإنسان عاجزًا عن إدراك حقيقة (أتوم) – أي الذات الإلهية – فإنه كذلك يعجز عن إدراك الأفكار العظمى التي يتصف بها، مثل النظام الكوني الكامل والاتساق العظيم في الخلق.

فالإنسان قد يستطيع إدراك بعض مظاهر هذا النظام، لكنه لا يستطيع إدراكه إدراكًا كاملًا. فمثلًا، إذا سُئل الإنسان: ممّ خُلق الكون؟ فقد يجيب بنظريات علمية مثل الانفجار العظيم أو العناصر الأولية كالذرات والبروتونات والإلكترونات. غير أن هذه الإجابات تبقى عامة وغير تفصيلية، ولا تعطي معرفة كاملة بحقيقة الكون.

فالإنسان، في حدود قدراته الحالية، يستطيع إدراك بعض القوانين العامة فقط، أما المعرفة الدقيقة الكاملة فهي أمر يتجاوز قدرته.

ثم يقول هرمس :(ليس ثمة نقص في أتوم، فليس هناك ما يتمناه) .والمقصود بذلك تنزيه الإله عن صفات النقص البشرية؛ فالله لا يحتاج إلى شيء، ولا ينقصه شيء، ولا يطلب ما يكمل ذاته.

فهو سبحانه لا يحتاج إلى طعام أو شراب أو نوم أو راحة، ولا يحتاج إلى علاج أو شفاء، لأنه ليس كالكائنات البشرية المحدودة. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا المعنى في قوله

تعالى:

﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾.

كما أن هرمس يشير إلى أن الكمال الإلهي لا يقتصر على عدم الاحتياج المادي فقط، بل يشمل أيضًا عدم خضوع الذات الإلهية للانفعالات البشرية مثل الحزن أو الرغبات أو التمنيات؛ فالله كامل بذاته، غني عن كل شيء.

وبذلك يؤكد الفكر الهرمسي على تنزيه الإله عن كل نقص، وعلى أن الكمال الإلهي هو أساس النظام الكوني الذي يقوم عليه هذا العالم.

المقالة 7 من شرح العلوم الهرمسية

بسم الله الرحمن الرحيم.

إن (أتوم) منزه عن مشاعر الغضب والحزن والكره والحقد، والسبب في ذلك سبب عقلي ومنطقي. فالمشاعر الإنسانية مثل الغضب أو الحزن أو الفرح إنما تنشأ عندما يواجه الإنسان أمرًا معينًا فينجح فيه أو يفشل فيه؛ فإذا نجح الإنسان فرح، وإذا فشل غضب أو حزن. فالمشاعر إذن مرتبطة بالحاجة والنقص.

فالإنسان مثلًا يحتاج إلى قوت يومه، فإذا عمل وحصل على راتبه فرح، لأنه سيستطيع شراء الطعام الذي يحتاج إليه. أما إذا فشل في تحصيل رزقه فإنه يحزن، لأنه محتاج إلى المال والطعام. وكذلك الأمر في المرض والعلاج؛ فإذا احتاج الإنسان إلى دواء ولم يجده فإنه يحزن، لأنه يخشى المرض أو الألم، أما إذا وجد العلاج فإنه يفرح لأنه سيُشفى.

أما (أتوم) فليس في حاجة إلى شيء من ذلك كله، ولذلك لا تنشأ لديه هذه الانفعالات. فهو لا يحتاج إلى طعام أو شراب أو نوم أو دواء، لأنه غير مادي أصلًا، وهو خالد أزلي. ومن ثم فإن المشاعر التي تنشأ عن الحاجة أو النقص لا يمكن أن تُنسب إليه.

ومن هنا يمكن القول إن (أتوم) هو كل شيء، بمعنى أن روح (أتوم) موجودة في كل شيء من الموجودات. وهذه الروح لا تختفي من الأشياء، بل تبقى موجودة دائمًا. فنحن عندما ننظر إلى العالم من حولنا نرى في كل شيء أثر النظام والإبداع والاتساق الذي خلق الله به الكون. غير أن القول بأن (أتوم) هو كل شيء لا يعني أن الأشياء نفسها هي (أتوم)، بل يعني أن كل الأشياء داخلة ضمن نظامه وخلقه، وأنها تحمل أثر حكمته ونظامه.

وبناءً على ذلك فإن (أتوم) هو خالق كل شيء. وهذه نتيجة معروفة في جميع الأديان، إذ إن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكون وموجده. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا المعنى بقوله تعالى :﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

والقول بأن الله خالق كل شيء يقوم على مبدأ عقلي، وهو أن الأشياء لا بد لها من علة أو سبب أول يكون أصلها ومصدرها. فالأشياء في هذا العالم تبدأ من العدم ثم تنتهي إلى الزوال، وهذه الحركة من العدم إلى الوجود ثم إلى العدم لا بد أن تكون خاضعة لقانون معين. ولا بد كذلك من وجود مبدأ أول يقف وراء هذه الحركة ويجعلها ممكنة.

ولهذا يقول هرمس إن كل شيء جزء من (أتوم) .والمقصود بهذا القول أن كل شيء داخل في نظام (أتوم) وتحت سلطانه، لأن (أتوم) هو الذي خلق الأشياء بنظام وترتيب وإبداع.

ثم يضيف هرمس فكرة أخرى، فيقول إن (أتوم) خالق ذاته بنفسه، وتلك هي عظمة (أتوم) . وهذه العبارة قريبة في معناها من مفهوم (الصمد) الذي ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى :﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ .فمعنى أن (أتوم) خالق ذاته بنفسه أنه لا يحتاج إلى سبب يوجده أو إلى قوة خارجة عنه تخلقه.

فالإنسان مثلًا لا يستطيع أن يخلق نفسه، بل يحتاج إلى أب وأم ليولد، ويحتاج كذلك إلى عوامل أخرى ليعيش وينمو. أما (أتوم) فهو غير محتاج إلى شيء من ذلك، لأن الاحتياج يدل على النقص، بينما (أتوم) كامل القدرة.

ويمكن توضيح هذا المعنى من خلال مبدأ المتضادات .فنحن عندما نصف الأشياء نجد أنها تقع غالبًا بين ضدين: فإما أن يكون الشيء موجودًا أو معدومًا، وإما أن يكون باردًا أو حارًا، وإما أن يكون رطبًا أو يابسًا. وكذلك الإنسان قد يكون غنيًا أو فقيرًا، صحيحًا أو مريضًا، طويلًا أو قصيرًا.

وعند تطبيق هذا المبدأ على (أتوم) يمكن القول إن وجوده إما أن يكون بغيره أو بنفسه. أما القول إنه موجود بغيره فهو مستحيل، لأن الوجود بغيره يعني الاحتياج، والاحتياج يعني أنه ليس المتصرف في الكون. ولذلك يبقى الاحتمال المنطقي الوحيد هو أنه موجود بذاته، أي أنه غير محتاج إلى غيره، وهو أصل الخلق ومصدره.

ومن هنا تتضح عظمة (أتوم)، إذ إنه لا يحتاج إلى غيره في شيء من أموره، بل هو أساس ذاته وأساس وجوده. بينما المخلوقات تحتاج إلى غيرها في وجودها واستمرارها. فالإنسان مثلًا يحتاج إلى أب وأم ليولد، ويحتاج إلى عوامل كثيرة ليعيش. أما (أتوم) فليس محتاجًا إلى شيء من ذلك، ولذلك كانت هذه الاستقلالية هي سر عظمته وتميزه عن سائر الخلق.

بسم الله الرحمن الرحيم.

نبدأ اليوم إكمال قراءة كتاب (متون هرمس: حكمة الفراعنة المفقودة)، وقد وصلنا إلى الصفحة (44). ويقول هرمس في هذا الموضع إن كينونة الإله الحقة هي قدرته على الخلق .أي إن قدرة الله على الخلق هي التي تعبر عن حقيقته الإلهية.

ويرى هرمس أن هذه القدرة لا يمكن أن تتوقف، كما لا يمكن أن يتوقف وجود الله نفسه. فالله سبحانه وتعالى موجود دائمًا، أزلي وأبدي، ولا يمكن أن يتوقف عن الوجود. وليس المقصود بذلك أن هذا العالم سيبقى إلى الأبد، بل المقصود أن الله دائم الوجود، وأن قدرته على الخلق قدرة مستمرة لا تنقطع.

فوجود الله هو أساس الوجود كله، وهو مصدر الكون والحياة. ولولا وجوده لما كان للكون وجود أصلًا، لأن كل شيء في العالم يستمد وجوده وقوته من الخالق.

ثم يقول هرمس إن (أثره في كل مكان)، أي إن روح الله أو أثر قدرته يظهر في جميع الأشياء. وقد سبق أن شرحنا هذا المعنى في الحلقات السابقة.

ويضيف هرمس فكرة أخرى فيقول :(إن الفكر لا يمكن أن يُحاصر بسياج) .وهذا أمر طبيعي، لأن الفكر يختلف عن الأشياء المادية. فالأشياء المادية لها طول وعرض وارتفاع، ويمكن أن تُحاط بسور أو حدود معينة، أما الفكر فهو غير مادي، ولذلك لا يمكن أن يُحاصر أو يُقيد.

والمقصود بالفكر هنا ليس الفكر الإنساني العادي، بل الفكر الإلهي أو النظام الذي خلق الله به الكون، والذي يُسمى بالإنجليزية *Order.* فهذا الفكر هو النظام الذي ينظم الكون ويرتب أجزاءه ويجعلها متسقة ومتناسقة.

ولهذا يقول هرمس إن كل ما هو موجود خاضع للفكر، أي إن كل شيء في الكون خاضع للنظام الذي وضعه الله. فلا يوجد شيء خارج عن هذا النظام الكوني.

كما يؤكد هرمس أن هذا الفكر لا يماثله شيء في السرعة أو القوة. فالنظام الذي خلق الله به الكون نظام بالغ الدقة، ولا يستطيع أحد أن يضاهيه أو ينافسه. فالإنسان مهما بلغ علمه يظل إدراكه محدودًا، ولذلك فإن الأنظمة التي يبتكرها الإنسان تبقى ناقصة وقابلة للتعديل.

ومن الأدلة على ذلك أن الآلات التي يصنعها الإنسان تحتاج دائمًا إلى تطوير وتحسين، كما أن القوانين التي يضعها البشر تحتاج إلى تعديل مستمر. وهذا يدل على أن المعرفة البشرية محدودة، بينما النظام الكوني الذي أبدعه الله يتميز بالكمال والدقة.

ثم يضرب هرمس مثالًا فيقول :تخيل نفسك في بلد غريب .فالإنسان يستطيع أن يتخيل نفسه في مكان بعيد، كأن يتخيل أنه في بلد آخر مثل أمريكا. لكن هذا التخيل لا يعني أنه موجود هناك فعلًا، لأنه لا يعرف ما يحدث في ذلك المكان في الحقيقة.

فهو يستطيع أن يتخيل صورة البلد أو يتخيل نفسه في أحد شوارعها، لكنه في الواقع لا يعيش تلك الأحداث. ومن خلال هذا المثال يريد هرمس أن يوضح الفرق بين الخيال الذهني والوجود الحقيقي.

إن ما يريده هرمس في هذا الموضع هو التأكيد على أن الإله يعلم كل شيء، لأنه حاضر في كل شيء من خلال روح الله، وذلك وفق نظرية روح الله الموجودة في كل شيء، وكذلك من خلال نظام الإبداع والاتساق والترتيب الذي خُلق به الكون. غير أن هرمس في بعض الأمثلة التي يوردها يقع في نوع من الخطأ أو المبالغة في التشبيه.

فهو يقول مثلًا :(فكّر في المحيط، وهناك ستكون) .ويقصد بذلك أن الإنسان إذا تخيّل شيئًا فإنه يكون حاضرًا فيه بفكره. غير أن هذا المثال ليس دقيقًا؛ لأن الإنسان عندما يتخيّل المحيط لا يكون موجودًا فيه حقيقة، بل هو مجرد تخيل ذهني. وهنا ينتقل هرمس من النظرية العقلية التخيلية إلى مستوى الوجود الحقيقي، فيجعل التخيل سببًا لوجود الأشياء، وهذا أمر غير صحيح في الواقع.

ويستمر هرمس في الأمثلة التخيلية فيقول :(حلّق في السماء بلا أجنحة، ولن يعوقك وهج الشمس أو دوران النجوم)، ثم يقول :(تقدم بفكرك إلى حدود الكون إن أردت) .وهذه كلها أمثلة تقوم على الخيال الذهني، إذ يمكن للإنسان أن يتخيل نفسه في أي مكان أو حالة، لكنه في الحقيقة لا يوجد هناك وجودًا فعليًا.

ثم يقول هرمس :(هل يمكنك أن تشعر بالقوة التي تمتلكها؟ إن استطعت ذلك فافعل هذا كله، ثم فكر في من يكون بارئك، وحاول أن تفهم أن أتوم هو الفكر) .وهنا يريد هرمس أن يقرّب فكرة كيفية تفكير الإله بالأشياء. فهو يضرب أمثلة، وإن لم تكن دقيقة تمامًا، ليبين الفرق بين تفكير الإنسان وتفكير الإله.

فالفرق بينهما أن تفكير الإنسان لا يخلق الأشياء، بينما تفكير الله سبحانه وتعالى يخلق الأشياء .فالله إذا أراد شيئًا قال له :كن فيكون .أما الإنسان فلا يستطيع أن يخلق الأشياء بمجرد التفكير فيها.

غير أن هرمس في هذا الموضع يقترب من تصور يجعل تفكير الإله أقرب إلى التخطيط أو التنسيق منه إلى الإيجاد المباشر، مع أنه في مواضع سابقة أكد أن الله هو خالق كل شيء. وهذا يخلق نوعًا من التناقض الظاهري في عرضه الفلسفي.

ثم يقول هرمس :(انظر كيف جمع أتوم الكون، فكل شيء هو فكر أتوم) .وهذه نتيجة منطقية ضمن التصور الهرمسي؛ إذ إن أتوم هو الأصل والمصدر والخالق لهذا الكون. ومعنى أن كل شيء هو (فكر أتوم) أن الكون كله قائم على النظام والترتيب والإبداع الذي صدر عن الإله.

وقد سبق أن شرحنا أن هذا المعنى يمكن فهمه من خلال نظرية الإبداع والترتيب الإلهيين، التي ترى أن كل شيء جزء من أتوم، وأن أثره حاضر في الكون من خلال النظام والاتساق الذي أودعه في الموجودات.

ثم ننتقل بعد ذلك إلى الصفحة(45) ، حيث يبدأ الفصل الرابع المعنون بـ (تأمل للخلق) .وفي هذا الفصل يقول هرمس:

(سل أتوم أن يبعث شعاعًا من ضيائه ليمنحك القدرة على فهم كينونيته العليا بفكرك، حيث لا يُفهم ما خفي عن الحس إلا بالفكر الذي هو خفي أيضًا).

في هذا النص يشير هرمس إلى قاعدة روحية مهمة، وهي ضرورة طلب الفتح الرباني من الله سبحانه وتعالى. والمقصود بالفتح الرباني هو الفهم الصحيح والدقيق للأمور الإلهية والروحانية.

فلا يكفي في هذه المسائل الاعتماد على العقل وحده، بل ينبغي أن يشارك القلب أيضًا في هذا الفهم. ذلك أن العقل محدود القدرة، ولا يستطيع إدراك جميع الحقائق الروحية. ولهذا ينبغي للإنسان أن يسأل الله دائمًا أن يمنحه الفهم الصحيح والهداية في الأمور الإلهية.

كما ينبغي أن يؤمن الإنسان بأن الله وحده هو الذي يمنح هذا الفهم، وليس الكواكب أو عناصر الطبيعة أو أي قوى أخرى. فالمصدر الحقيقي للهداية والمعرفة الروحية هو الله وحده.

ويقول هرمس أيضًا إن كينونة الله لا تُفهم من خلال النظريات العلمية أو ما يسمى بالإعجاز العلمي، بل تُفهم من خلال الفكر والتأمل. والمقصود بالفكر هنا التأمل العميق في الكون وفي النظام الذي خلق الله به العالم.

فالعلم، رغم أهميته، لا يجيب عن جميع الأسئلة، وقد يكون ناقصًا أو عرضة للخطأ في بعض الأحيان. ولذلك فإن فهم الله يعتمد بدرجة كبيرة على الفطرة الإنسانية والتأمل الروحي.

ثم يقول هرمس :(حيث لا يُفهم ما خفي عن الحس إلا بالفكر الذي هو خفي أيضًا) .وهذه عبارة عميقة المعنى، إذ إن الله سبحانه وتعالى خفي عن الحواس، فلا يمكن إدراكه إدراكًا حسيًا مباشرًا. ولذلك فإن معرفته لا تكون إلا بوسيلة خفية كذلك، وهي الفكر.

والفكر هنا يمكن فهمه بمعنيين. المعنى الأول هو النظام والاتساق والترتيب الإلهي في الكون .فعندما يتأمل الإنسان هذا النظام الدقيق في الكون، يدرك أن وراءه خالقًا عظيمًا.

أما المعنى الثاني فهو العقل الإنساني الذي يتأمل ويستنتج. غير أن المعنى الأول يبدو أقرب إلى مراد هرمس في هذا السياق.

ثم يقول هرمس :(فإذا لم تكن ترى الأفكار، فهل تتوقع أن ترى أتوم؟) .والمقصود هنا أنه إذا لم يستطع الإنسان أن يرى النظام والترتيب الإلهي في الكون، فكيف يمكنه أن يدرك ذات الإله نفسه؟

فمعرفة الله لا تكون إلا من خلال آثاره في الكون، وأهم هذه الآثار هو النظام الذي أودعه في الموجودات. فإذا لم يدرك الإنسان هذا النظام فلن يستطيع الوصول إلى معرفة الخالق.

ثم يقول هرمس :(انظر بفكرك إذًا، وسوف يظهر لك متجليًا بلا تحفظ في العالم أجمع، فترى صورته بعينيك وتلمسها بيديك).

والمقصود بالفكر هنا العقل الإنساني الذي يتأمل في الكون. فالله يظهر للإنسان الذي يطلبه ويبحث عنه بصدق. فمن يسعَ إلى معرفة الله ويتقرب إليه، فإن الله يقربه إليه ويمنحه الفهم.

غير أن قول هرمس إن الإنسان قد (يرى الله بعينيه ويلمسه بيديه) هو تعبير مجازي، وليس مقصودًا به المعنى الحسي الحرفي. فهو كناية عن شدة القرب الروحي والمعرفة العميقة بالله.

وقد ورد معنى قريب من ذلك في الحديث القدسي الذي يقول فيه الله تعالى:
(ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها).

فالمقصود من هذا الحديث، كما في كلام هرمس، هو القرب الروحي من الله، لا الاتحاد الحسي أو المادي.

ومع ذلك فإن الله، رغم قربه من عباده، يظل باطنًا في ذاته، أي أن حقيقته الذاتية تبقى فوق إدراك البشر الكامل. فالإنسان يستطيع معرفة الله من خلال آثاره وصفاته، لكنه لا يستطيع إدراك ذاته إدراكًا كاملًا.

المقالة 8 من شرح العلوم الهرمسية

بسم الله الرحمن الرحيم.

نبتدئ اليوم إكمال شرح العلوم الهرمسية أو ما يُعرف بالفلسفة الهرمسية. وكنا في حديثنا السابق نتناول كتاب (متون هرمس: حكمة الفراعنة المفقودة)، وقد وصلنا في القراءة إلى الصفحة السادسة والأربعين من هذا الكتاب. في هذا الموضع يطرح هرمس سؤالًا مهمًا على القارئ فيقول :*هل تعتقد أن أتوم خفي؟* والمقصود بـ(أتوم) هنا الإله أو المبدأ الإلهي الخالق. يريد هرمس من هذا السؤال أن يلفت نظر القارئ إلى أن طبيعة الإله ليست خفية كما قد يتوهم البعض، بل هي في غاية الوضوح والظهور، مثل الشمس التي يراها كل إنسان. صحيح أن من أسماء الإله في بعض التقاليد أنه (الباطن)، أي الذي لا تُدرك حقيقته الكاملة، لكن هذا البطون لا يعني الغياب أو الانعدام، بل يعني أن حقيقته العميقة تتجاوز الإدراك المباشر. ولذلك فإن الإله، بحسب الفلسفة الهرمسية، ظاهر من حيث آثاره في الكون، وباطن من حيث ذاته وحقيقته.

وهذه الفكرة تمثل سمة مميزة للفلسفة الهرمسية؛ إذ إنها ليست فلسفة صارمة منطقية بالمعنى الذي نجده مثلًا في الفلسفة الكانطية أو الهيغلية، ولا تشبه العلوم الدقيقة كعلم القانون، بل هي فلسفة رمزية تتسع للمتناقضات الظاهرية. ففيها قد يجتمع الضدان ليشكلا معنى واحدًا متكاملًا. لذلك يقول هرمس إن الإله ظاهر رغم بطونه، وباطن رغم ظهوره. فهو ظاهر للمؤمنين الذين يتأملون الكون ويدركون النظام الكامن فيه، بينما يظل باطنًا وخفيًا لمن لا يؤمن أو لمن لا يتأمل في الكون تأملًا عميقًا.

ومن هنا يحذر هرمس القارئ قائلًا :لا تقل إن أتوم خفي .فليس هناك ما هو أوضح من الإله لمن تأمل في العالم. فكل ما نراه في الكون من نظام وإبداع وترتيب يدل على وجود خالق. فالنجوم والكواكب، والسماء والأرض، والنبات والحيوان، بل وحتى الإنسان نفسه، كلها

شواهد على وجود مبدع لهذا الكون. وهذا المعنى قريب من الفكرة المعروفة في الفلسفة الدينية باسم حجة النظام أو التصميم، التي تقول إن وجود نظام دقيق في الكون يدل على وجود عقل منظم وراءه.

ولشرح هذه الفكرة يمكن أن نذكر قصة حي بن يقظان، وهي قصة فلسفية معروفة كتبها ابن طفيل، ويُنسب أصلها أحيانًا إلى ابن سينا. تحكي هذه القصة عن طفل نشأ في جزيرة منعزلة بعيدًا عن البشر، ولم يتلقَّ أي تعليم ديني أو اجتماعي. ومع ذلك، استطاع هذا الطفل عبر التأمل في الطبيعة أن يصل إلى فكرة وجود الخالق. فقد تأمل في غزالة كانت ترعاه، فلما ماتت قام بتشريح جسدها باحثًا عن السبب الذي كان يمنحها الحياة، فاكتشف أن الجسد المادي وحده لا يكفي لتفسير الحياة، وأن هناك مبدأً آخر غير مادي هو الذي يمنح الكائن الحي روحه. ومن هنا استنتج وجود خالق أعلى. هذه القصة تُستخدم للدلالة على أن إدراك وجود الخالق إدراك فطري يمكن أن يصل إليه الإنسان حتى دون تعليم مباشر.

ويقول هرمس في هذا السياق إن الإله خلق الأشياء كلها بحيث يمكن للإنسان أن يراه من خلالها. فالعالم، بكل ما فيه من ظواهر، هو بمثابة مرآة تعكس آثار الخالق. فحين ينظر الإنسان إلى الشجرة أو الحجر أو السماء أو النجوم، ويرى فيها الدقة والإتقان والنظام، فإنه يدرك أن وراء هذا كله قوة خالقة حكيمة. ولهذا يقول هرمس إن رحمة أتوم العظيمة هي التي جعلته ظاهرًا في كل شيء .فظهوره ليس ظهورًا ماديًا مباشرًا، بل هو ظهور من خلال آثاره في الكون.

ثم يضيف هرمس فكرة أخرى مهمة، فيقول إن الإنسان يمكنه أن يعرف الأشياء غير المادية كما يعرف العقل من خلال أفكاره. فكما أننا نستدل على عقل الإنسان من خلال كلامه وأفكاره، نستدل على وجود الخالق من خلال خلقه. فالآثار تدل على المؤثر، والصنعة تدل على الصانع. فإذا رأينا بناءً متقنًا أدركنا أن وراءه مهندسًا، وإذا رأينا كتابًا أدركنا أن وراءه مؤلفًا، فكذلك إذا نظرنا إلى الكون بما فيه من نظام وإبداع أدركنا أن وراءه خالقًا.

بعد ذلك يقول هرمس إن أتوم هو صانع الأبدية المطلقة .وهنا يميز بين أمرين: العالم المادي، والإله الخالق. فالعالم المادي يتغير ويتبدل ويخضع للفساد والزوال، أما الإله فهو أبدي لا بداية له ولا نهاية. ومن هنا يستنتج هرمس أن الخالق لا يمكن أن يكون ماديًا؛ لأن المادة بطبيعتها متغيرة وفانية. فإذا كان الإله هو مصدر الوجود كله، فلا بد أن يكون متعاليًا على المادة وقوانينها.

ويشير هرمس كذلك إلى فكرة التكرار في الكون، وهي أن كثيرًا من الظواهر الطبيعية تتكرر بانتظام: تعاقب الفصول، ودورة الليل والنهار، ونمو النبات ثم موته ثم نموه مرة أخرى. هذا التكرار يدل على وجود نظام كوني ثابت. ومع ذلك، لا يعني هذا أن الكون نفسه أبدي؛ بل إن له بداية ونهاية، لكن القوانين التي تحكمه تعطي انطباعًا بالاستمرار والتجدد.

وعندما يتحدث هرمس عن (المطلق)، فإنه يقصد الكمال الذي لا نقص فيه. فالمطلق هو الذي لا يحتاج إلى غيره، ولا يعتمد على شيء خارج ذاته. وهذا المعنى قريب من مفهوم الصمد في العقيدة الإسلامية، أي الذي تصمد إليه الخلائق كلها وهو غني عن كل شيء.

ثم يقول هرمس إن الخالق ينسج كل شيء في نسيج الواقع، وإن رؤية الخلق تقود إلى معرفة الخالق. فالغرض من وجود العالم هو أن يتأمل الإنسان فيه ويصل من خلاله إلى معرفة الله. وهذا المعنى قريب من الفكرة الدينية التي تقول إن خلق الكون هو دعوة للإنسان إلى التفكر في آيات الله. فكل ظاهرة في الكون يمكن أن تكون دليلًا على وجود الخالق وحكمته.

ويؤكد هرمس أن الخالق لا يتوقف عن الخلق، ولذلك يظل حضوره ظاهرًا في العالم. فكلما تأمل الإنسان في الكون ازداد تعجبًا من دقة نظامه واتساقه. ومن هنا يرى هرمس أن من يدرك هذه الحقيقة يكون قد نال نعمة عظيمة، وهي نعمة معرفة الإله.

ثم يدعو هرمس الإنسان إلى استخدام عقله في التأمل، فيقول :تفكر بعقلك كي تعرف كينونة أتوم .فالعقل هو الأداة التي منحها الله للإنسان كي يتأمل في الكون ويدرك معانيه. ومع أن حقيقة الإله في ذاته تبقى فوق إدراك العقل، إلا أن الإنسان يستطيع أن يعرفه من خلال آثاره وأفعاله في العالم.

ويضيف هرمس أن الكون يخضع لقوانين ضرورية تحكم حركته ونظامه. وهذه القوانين تجعل العالم يسير في انتظام واضح. ومع ذلك، فإن هذه القوانين ليست مستقلة عن الإرادة الإلهية، بل هي جزء من النظام الذي وضعه الخالق، ويمكنه أن يتدخل فيه متى شاء.

وفي ختام هذا المقطع يستعرض هرمس بعض الظواهر الكونية، مثل حركة الكواكب ودورانها، وثبات النجم القطبي، ودور الشمس في إنارة العالم. ويعتبر هذه الظواهر دلائل على النظام الكوني الدقيق. فالشمس مثلًا تُصوَّر في النصوص الهرمسية على أنها أعظم أنوار السماء، وكأنها ملك تتبعه الكواكب الأخرى وتستمد منها النور والحياة. وهذه الصور الرمزية تهدف في النهاية إلى التأكيد على فكرة واحدة، وهي أن النظام البديع في الكون لا يمكن أن يكون بلا خالق، بل يدل بالضرورة على وجود عقل إلهي منظم لهذا الوجود.

يستعرض هرمس بعد ذلك مظاهر الحياة الإنسانية، ويرى فيها أيضًا آيات ودلالات وضعها الله سبحانه وتعالى في الكون لتكون شاهدًا على وجوده. فيتساءل هرمس تساؤلات تأملية مثل: من الذي أدار حركة عينيك؟ ومن الذي فتح فمك وفكَّك، وهيأ لك السمع والبصر؟ ومن الذي مدّ أربطة الجسد وربطها بعضها ببعض بحيث يعمل الجسد بانسجام واتساق؟ هذه الأسئلة ليست مقصودة لذاتها بقدر ما هي دعوة للتأمل في تكوين الإنسان المعقّد، وفي ما يتضمنه من نظام دقيق يدل على حكمة الخالق. لذلك يمكن القول إن هذا المقطع يحمل طابعًا إنشائيًا تأمليًا أكثر من كونه عرضًا لفكرة فلسفية محددة، إذ الغرض منه توجيه العقل إلى التأمل في عظمة الخلق.

بعد ذلك ينتقل النص إلى الفصل الخامس، وهو من الفصول المهمة التي يعرض فيها هرمس جوهر أفكاره الفلسفية. يبدأ هذا الفصل بعبارة أساسية يقول فيها :*(العقل الأول، الذي هو حياة ونور، خلق عقل الكون)* .والمقصود بالعقل الأول هنا هو الله سبحانه وتعالى. وقد يفسّر بعض الدارسين هذا المفهوم على أنه يشير إلى ما يسمى في الفلسفة الهرمسية بـ(النوس) (Nous)، أي العقل الكلي أو العقل الإلهي، إلا أن المقصود في هذا السياق يمكن فهمه على أنه الذات الإلهية نفسها. فالعقل الأول هو مصدر الحياة والنور، أي أنه مبدأ الوجود كله، وهو مصدر الخير والنظام والإبداع والاتساق في الكون.

وعندما يقول هرمس إن العقل الأول خلق (عقل الكون)، فإنه يقصد بذلك أن الله سبحانه وتعالى خلق النظام الذي يسير عليه الكون. فالكون لا يقتصر على مجرد وجود أشياء كثيرة، بل يقوم على نظام شامل يربط بين هذه الأشياء وينظم حركتها. وهذا النظام هو ما يسميه هرمس (عقل الكون)، أي القوانين والسنن التي تضبط حركة الوجود. فالله سبحانه وتعالى هو الذي أوجد الكون وأوجد معه النظام الذي يدبر شؤونه.

ثم يصف هرمس العقل الأول بأنه ثابت لا يتحرك، خالد لا يتغير .وهذه الفكرة متأثرة بوضوح بالفلسفة الأرسطية، ولا سيما مفهوم (المحرّك الأول غير المتحرك) الذي تحدث عنه أرسطو. فالإله، بحسب هذا التصور، ثابت في ذاته، لا يخضع للتغيرات التي تخضع لها الموجودات المادية، لأن التغير من صفات المخلوقات. ولذلك فإن العقل الأول خالد لا يتبدل ولا تجري عليه سنن الزمان أو التحول.

ويضيف هرمس أن العقل الأول يحتوي على عقل الكون الذي لا تدركه الحواس. أي أن النظام الذي يحكم الكون ليس شيئًا محسوسًا بحد ذاته، بل هو نظام عقلي أو مبدأ كوني يمكن إدراكه بالعقل والتأمل، لا بالحواس المباشرة. فالإنسان يرى آثار هذا النظام في انتظام الظواهر الطبيعية وفي دقة القوانين التي تحكم العالم.

ثم يوضح هرمس أن الكون الذي تدركه الحواس هو صورة أو نسخة من عقل الكون الخالد، كأنه انعكاس في مرآة .ومعنى ذلك أن العالم المادي الذي نراه ليس إلا تجليًا للنظام الكوني الأعلى. فكما تعكس المرآة صورة الشيء دون أن تكون هي الأصل، كذلك يعكس الكون المادي النظام الإلهي الذي وضعه الخالق. ومن هنا يعود هرمس مرة أخرى إلى فكرة النظام الإلهي في الخلق، مؤكدًا أن اتساق الكون وترتيبه دليل على حكمة الخالق.

ويقول هرمس أيضًا :*(أول الخلق بلا بداية هو أتوم، وثاني الخلق هو الكون، وقد خُلق على شاكلته خالدًا أبدًا)* .والمقصود هنا أن الإله هو الأصل الأول الذي لا بداية له، بينما الكون هو المخلوق الذي أوجده الإله. أما قول هرمس إن الكون خُلق على شاكلته، فلا يعني التشابه في الذات أو الجوهر، بل التشابه في النظام والترتيب. فكما أن الإله هو مصدر النظام والحكمة، كذلك يظهر الكون منظمًا ومترابطًا في بنيته.

ويرى هرمس أن الكون يمكن وصفه بأنه حيّ؛ لأن الحركة لا تنفصل عنه. فالكون في حركة دائمة، والكواكب والنجوم والظواهر الطبيعية كلها تتحرك باستمرار. ومن هنا اعتبر أن الحركة علامة الحياة. وبما أن الكون يتحرك باستمرار، فهو – في نظره – كيان حيّ بمعنى ما. كما أن هذا الكون يستمد حياته من المصدر الأول، أي من الخالق نفسه.

ومن هنا يقول هرمس إن كل ما في الكون ينبض بالحياة، وإنه لا يوجد في الكون شيء ميت على الحقيقة. وقد يبدو هذا القول متناقضًا مع ما نراه من موت الكائنات الحية، لكن هرمس يفسر ذلك بأن الموت الظاهر ليس فناءً حقيقيًا، لأن الروح تبقى موجودة. فالحياة في نظره لا تنحصر في الجسد، بل تتجاوز الجسد إلى المبدأ الروحي الذي يمنحه الحياة.

ثم يصرح هرمس بأن أتوم هو النور ومصدر الطاقة الخالد أبدًا .فالنور هنا رمز للمعرفة والنظام والخير، كما أنه رمز للحياة نفسها. فالإله هو مصدر الحركة والطاقة التي تقوم عليها الموجودات كلها. ومن هنا فهو مانح الحياة، لأن كل شيء يستمد وجوده منه.

ويفسر هرمس ذلك بما يمكن أن نسميه قانون الأصل والفرع .فإذا كان الأصل حيًا، فمن الطبيعي أن يكون الفرع حيًا أيضًا. وبما أن الله سبحانه وتعالى هو أصل الوجود وهو حي، فإن الكون الذي صدر عنه يحمل نصيبًا من الحياة والحركة. ولذلك فإن الحياة تنتشر في الكون كله بدرجات مختلفة.

ثم يقول هرمس إن هذه الحياة تحكمها قوانين كونية ثابتة. فالكون يسير وفق نظام من القوانين التي تنظّم حركته وتحدد علاقاته. وهذه القوانين هي جزء من النظام الذي وضعه الخالق. ومن هنا يمكن القول إن الفلسفة الهرمسية تقوم في جانب كبير منها على التأمل في هذه القوانين الكونية ومحاولة فهمها.

ويضيف هرمس عبارة مهمة يقول فيها :(كينونة الكون هي في الطاقة الخالدة أبدًا) .
والمقصود أن وجود الكون واستمراره مرتبطان بالحركة والطاقة التي يستمدها من المصدر الأول. فالحياة والحركة متلازمتان؛ إذ إن ما يسكن ويخمد يقترب من الفناء. ولهذا يرى هرمس أن استمرار الكون مرتبط باستمرار الطاقة التي تمنحه الحياة.

ثم يوضح أن هذه الطاقة تنبع منها كل أشكال الحياة، وأنها لا يمكن أن تتوقف أو تفنى، لأن قوة الحياة الأبدية تربط أجزاء الكون بعضها ببعض. فالحياة – في هذا التصور – سلسلة متصلة تبدأ من المصدر الإلهي وتمتد إلى جميع الموجودات.

ويقول هرمس كذلك إن الكون يمنح هذه الحياة لكل الأشياء التي يحتويها. فالترتيب الكوني يجعل الحياة تنتقل من مستوى إلى آخر. فالأبدية تمنح الحياة للكون، والكون بدوره يمنح الحياة للموجودات التي يحتويها. وهنا يظهر نوع من التراتب في الوجود، يبدأ من المصدر الأعلى ثم يمتد إلى الموجودات الأدنى.

بعد ذلك ينتقل النص إلى الحديث عن العلاقة بين العقل والروح. فيقول هرمس إن العقل والروح تجسيد للنور والحياة، وكل شيء يتحرك بقوة الروح .والمقصود بالعقل هنا قد يكون

العقل الإلهي الذي نظم الكون، لا مجرد العقل الإنساني. أما الروح فهي المبدأ الذي يمنح الحياة والحركة للموجودات.

ويضيف هرمس أن جسد الكون، الذي يضم جميع الأجساد، مشبع بالروح. أي أن الكون كله مملوء بقوة الحياة التي تحركه. فالروح تحيط بالكون وتملؤه، وتمنح الحياة لذلك الكيان العظيم الذي هو الكون نفسه، والذي يمنح بدوره الحياة للمخلوقات التي يحتويها.

ومن هنا يوضح هرمس وجود تراتب في الوجود :فالمصدر الأعلى هو الإله، ومنه يصدر العقل الكوني، ومن العقل يتشكل الكون، ومن الكون تنشأ الكائنات المختلفة. وهذا الترتيب يشبه سلسلة من المستويات المرتبطة بعضها ببعض.

ثم يشبّه هرمس الكون بالأب الذي يرعى أبناءه، فيقول إن الكون يولّد مكوناته ويغذيها كما يفعل الأب مع أبنائه. وهذه صورة رمزية تهدف إلى بيان أن النظام الكوني لا يترك الموجودات بلا عناية، بل يوفر لها الظروف التي تمكنها من الوجود والنمو.

ويؤكد هرمس بعد ذلك أن الكون صورة لأتوم، أي انعكاس للنظام الإلهي. وبما أن أتوم هو الخير المطلق، فإن الكون – بوصفه صورة عنه – يحمل في بنيته الخير والنظام. وهذه الفكرة تعود مرة أخرى إلى قانون الأصل والفرع، حيث إن الفرع يحمل صفات الأصل بدرجة ما.

ثم ينتقل النص إلى الفصل السادس الذي يتحدث عن الزمن ودوراته. في هذا الفصل يوضح هرمس أن الكون من جهة ما لا يتغير في جوهره، لأن حركاته تخضع لقوانين ثابتة تجعل دوراته تستمر باستمرار الزمن. ومع ذلك فإن أجزاء الكون تظهر وتختفي وتُخلق من جديد مرارًا وتكرارًا.

ويفسر هرمس ذلك بما يمكن تسميته قانون التعاقب .فالأشياء في الكون تتعاقب: يظهر شيء ثم يزول ليأتي بعده شيء آخر. ومثال ذلك تعاقب الأجيال؛ فالأب يولد الابن، ثم يموت الأب

ويبقى الابن، ثم يأتي جيل آخر بعده، وهكذا تستمر سلسلة الحياة. وبهذا التعاقب تستمر حركة الكون عبر الزمن دون توقف.

المقالة 9 من شرح العلوم الهرمسية

إن من القوانين المهمة التي تحكم الكون ما يمكن أن نسمّيه قانون التعاقب .فالأشياء في هذا العالم لا تبقى ثابتة، بل تظهر ثم تختفي ليحلّ محلها شيء آخر. فمثلًا، لو تأملنا شجرة في الطبيعة، فإنها قد تنتج شجرة أخرى من بذورها، ثم تموت هي لاحقًا، بينما تبقى الشجرة الجديدة وتستمر. كذلك الأفكار؛ فقد تختفي فكرة ما، ثم تأتي فكرة أخرى لتحلّ محلها. وهكذا فإن أجزاء العالم تظهر وتختفي باستمرار، وهذه الظاهرة تعبّر عن قانون التعاقب الذي يُعد من القوانين الأساسية التي تنظّم سير الكون.

وقد يتساءل الإنسان: لماذا خلق الله الكون على صورة منظومة من القوانين؟ ولماذا لا يسير الكون إلا وفق قواعد محددة؟ إن ما يمكن تسميته بضرورة القانون يفسّر هذا الأمر؛
فالقوانين لا بدّ من وجودها ولا بدّ أن تكون أساسية في بنية العالم، لأن الكون لا يمكن أن يتحرك أو يستمر إلا بوجود نظام يحكمه. فلو لم يكن هناك قانون يحكم الكون، لأصبح الكون عشوائيًا بالكامل، والعشوائية تؤدي إلى فساد عظيم واضطراب شامل.

ولتوضيح ذلك يمكن تخيّل مثال بسيط: لو لم تكن هناك قوانين تنظّم حركة الكواكب في الفضاء، فإن الكواكب قد تصطدم ببعضها البعض، أو تنحرف عن مساراتها، أو تبتعد في الفضاء بلا نظام. وكذلك الحال في المجتمعات البشرية؛ فلو كانت هناك مدرسة بلا نظام ولا معلمين ولا إدارة، لأصبحت المدرسة في حالة فوضى واضطراب. ومن هنا يتضح أن النظام شرط أساسي لاستمرار الحياة وانتظامها.

ومن خلال الزمن تنتظم الحياة وتستمر؛ إذ إن قانون التعاقب نفسه محكوم بقانون آخر هو قانون الزمن .فالزمن هو الذي يحدد بداية الأشياء ونهايتها، وهو الذي يقرر مدة بقائها. وغالبًا ما يكون مصير الأشياء هو الزوال، لكن الزمن هو الذي يحدد متى يظهر الشيء

ومتى يختفي. فمثلًا، قد يعيش الأب سبعين أو ثمانين أو تسعين سنة، ثم يموت، ويأتي بعده الابن الذي يعيش بدوره سنوات معينة ثم يموت، ثم يأتي الحفيد، وهكذا تتعاقب الأجيال.

وفي هذا التعاقب حكمة عظيمة؛ إذ إن الأشياء لو بقيت خالدة لا تزول، لشاركت الإله في صفة الخلود. فالخلود المطلق من خصائص الألوهية؛ إذ إن الله لا يجري عليه الزمن ولا النقص ولا الفناء. ولذلك فإن الأشياء في هذا العالم تموت وتختفي ثم تتجدد، لكي يبقى الفرق واضحًا بين الخالق والمخلوق.

ولهذا يقول هرمس إن الزمن يجدد كل شيء في الكون بدورة مستمرة من التحولات .وهذه التحولات ترتبط بحركة الكائنات السماوية، التي تعود دائمًا إلى مواضعها في دوراتها الأزلية. وهنا يشير هرمس إلى علم التنجيم، إذ يرى أن حركة الكواكب ترتبط بالتحولات التي تحدث في العالم. فهناك في التنجيم ما يسمى بالتحولات السنوية أو الشهرية أو غيرها، وهي تعبير عن تغيرات مستمرة في الزمن.

ومن جهة أخرى، يمكن فهم كلام هرمس بمعنى أوسع، وهو أن الزمن نفسه قائم على التحول والتغير الدائم .فالأشياء لا تبقى على حال واحدة؛ بل تتبدل وتتحول باستمرار. صحيح أن الكون يستمر في وجوده، لكنه يتغير باستمرار في داخله. ويرى هرمس أن هذه التحولات مرتبطة بالكائنات السماوية، أي الكواكب، وكأنه يريد القول إن الكواكب تؤثر في الزمن وفي ما يحدث فيه من تغيرات.

ومن هنا نجد أن هرمس يلمّح إلى فكرة أن الكواكب قد تكون لها علاقة بالقضاء والقدر، وهو رأي نجده في بعض التقاليد القديمة المرتبطة بالتنجيم. غير أن المسلمين لا يقرّون بهذا الاعتقاد، لأن العقيدة الإسلامية ترى أن القضاء والقدر بيد الله وحده. ومع ذلك، فإننا عندما نشرح نصوصًا قديمة ينبغي أن نعرض أفكارها كما هي، حتى لو كنا لا نتفق معها.

ثم يقرر هرمس فكرة أخرى، وهي أن الحاضر ينبثق من الماضي، والمستقبل ينبثق من الحاضر .وهذه الفكرة تعبر عن مبدأ التتابع أو الترابط الزمني بين الأحداث. فالزمن يسير على صورة سلسلة متصلة: الماضي ثم الحاضر ثم المستقبل. غير أن بعض الفلاسفة قد يناقشون هذا الترتيب، فيقولون إن الحاضر هو الأصل، لأنه اللحظة التي نعيشها فعليًا، ثم يتحول الحاضر إلى ماضٍ، بينما المستقبل لم يأتِ بعد.

لكن يمكن النظر إلى الأمر من زاوية فلسفية أخرى، وهي أن الحاضر في الحقيقة يكاد لا يكون موجودًا .فالحاضر ما إن يظهر حتى يتحول فورًا إلى ماضٍ، بينما المستقبل لم يتحقق بعد. فإذا حاولنا الإمساك بالحاضر وجدناه لحظة عابرة تختفي فور ظهورها. ولذلك يمكن القول إن الزمن يتكوّن عمليًا من الماضي والمستقبل، بينما الحاضر مجرد لحظة انتقالية سريعة بينهما.

فعلى سبيل المثال، عندما أتكلم الآن، فإن اللحظة التي أتحدث فيها تُعد حاضرًا، لكنها بعد ثانيتين فقط تصبح ماضيًا، بينما اللحظات القادمة ما تزال في المستقبل ولم تأتِ بعد. وهكذا يتضح أن الزمن سلسلة من التحولات المستمرة التي لا تتوقف.

بعد هذه المقدمة ننتقل إلى الحديث عن الفلسفة الهرمسية .وقد سبق أن جرى شرحها في مواضع عديدة، لكننا سنحاول هنا تقديم عرض أقرب إلى الطابع الأكاديمي دون التوسع في التفاصيل اللاهوتية أو الفلسفية العميقة.

قبل الحديث عن هرمس نفسه، ينبغي أولًا الإشارة إلى الكتب الهرمسية .فهذه الكتب كثيرة، حتى لو بدا عددها محدودًا من حيث العناوين، لأن تأثيرها في الفلسفات الأخرى كان واسعًا. ومن أشهر هذه الكتب: كتاب *بيوماندريس*، وكتاب *كوربس هيرمتيكوم*، وكتاب *متون هرمس*، وكتاب *هرمس مثلث العظمة*، وغيرها من المؤلفات التي تناولت تعاليم هرمس وأفكاره.

وقد كتب هذه الأعمال مؤلفون مختلفون؛ فمثلًا كتاب هرمس مثلث العظمة ألّفه لويس مينار، وكتاب متون هرمس: حكمة الفراعنة المفقودة ألّفه بيتر جاندي، وكتاب The Greatest Hermes ألّفه أ. إ. وايت، أما كتاب The Divine Pymander فقد ترجمه جون إيفرارد. وهذا يدل على أن التراث الهرمسي نُقل عبر عصور متعددة وبأقلام مختلفة.

وتتميّز الكتب الهرمسية بأسلوب يجمع بين الدين والفلسفة والوعظ والميتافيزيقا .فهي تتناول موضوعات كبرى مثل الله، والوجود، والخير والشر، والأخلاق، وطبيعة الكون. ولهذا فإنها تبدو أحيانًا وكأنها نصوص دينية، وأحيانًا نصوص فلسفية، وأحيانًا أخرى نصوص روحية أو باطنية.

أما شخصية هرمس نفسها فهي شخصية جدلية غامضة. فقد قيل إنه النبي إدريس، وقيل إنه أخنوخ، وقيل إنه الإله المصري تحوت، وقيل إنه الإله اليوناني هرمس أو ميركوري. ولذلك حاولت أمم مختلفة أن تنسبه إليها.

لكن يمكن النظر إلى هرمس بطريقة أخرى؛ وهي أنه ليس شخصًا واحدًا بقدر ما هو نموذج أو رمز فكري .فكل شخصية تاريخية عُرفت بالحكمة والعلوم العميقة قد يُطلق عليها لقب هرمس. وبذلك يصبح هرمس أشبه بنمط فكري أو رمز للمعرفة والحكمة التي ظهرت في حضارات متعددة عبر التاريخ.

وقد أثّرت الهرمسية تأثيرًا واسعًا في الفكر الإسلامي والأوروبي على السواء. ففي العالم الإسلامي تأثر بها عدد من الفلاسفة والمفكرين، مثل الكندي، وابن سينا، والرازي، والسهروردي، كما ظهرت آثارها في كتابات إخوان الصفا وغيرهم. وارتبطت الهرمسية أيضًا ببعض العلوم القديمة مثل التنجيم والكيمياء القديمة (الخيمياء).

وتركز الفلسفة الهرمسية في جوهرها على فكرة المعرفة الكشفية؛ أي المعرفة التي يكتسبها الإنسان عبر الإشراق الروحي أو الإدراك الباطني، لا عبر البرهان العقلي وحده. فهدف هذه الفلسفة هو الوصول إلى معرفة الله والوجود من خلال تجربة روحية عميقة.

غير أن بعض الباحثين المعاصرين يرون أن ما يُسمى بالكشوفات الروحية قد يكون في بعض الأحيان مجرد حالات نفسية أو ذهنية يمر بها الإنسان. فبعض الأشخاص يعتقدون أنهم مختارون أو مكلفون برسالة خاصة، أو أنهم يمتلكون معرفة سرية عن الكون، لكن هذه الحالات قد تكون في بعض الأحيان نوعًا من الوهم أو الذهان، حيث يعتقد الشخص أنه يمتلك قدرات أو مكانة استثنائية.

ولهذا فإن دراسة الفلسفات الروحية القديمة تحتاج إلى قدر من النقد والتحليل، حتى نميّز بين التجربة الفكرية العميقة وبين الحالات النفسية التي قد تفسَّر على نحو مختلف.

تتحدث الفلسفة الهرمسية عن المعرفة بوصفها معرفة غنوصية أو كشفية، أي معرفة تقوم على الكشف الداخلي والإحساس الباطني، لا على البرهان العقلي والمنهج المنطقي. ومن هنا يمكن الدخول قليلًا إلى الجانب النفسي في هذه المسألة. فكثير من الأشخاص الذين يدّعون امتلاك الكشوفات أو الرؤى، ويقولون إنهم يرون أحلامًا خاصة أو يتواصلون مع قوى خفية أو ملائكة أو شياطين، غالبًا ما يُنظر إليهم في اللغة العامية على أنهم أشخاص مضطربون أو غير متزنين. والسبب في ذلك أن المعرفة التي يدّعون امتلاكها ليست معرفة عقلية قائمة على البرهان، بل هي معرفة غنوصية قلبية.

ومعنى الغنوص هنا أن المعرفة تأتي من القلب لا من العقل؛ أي أنها معرفة تعتمد على الإحساس الداخلي والحدس والشعور، لا على الاستدلال المنطقي أو الأدلة الحسية. فالعقل عادة يعتمد على البراهين، وعلى ما يمكن ملاحظته أو إثباته أو تحليله بطريقة واضحة ومباشرة. أما القلب، فيعتمد على أمور ميتافيزيقية وتأويلية وغامضة، وعلى الحدس والشعور والتجربة الداخلية والعاطفة.

ولهذا السبب اعتقد هرمس أن طريق القلب هو الطريق الصحيح إلى الحقيقة .ومع ذلك فإن هذا الخلاف بين طريق العقل وطريق القلب ليس من السهل حسمه؛ إذ إن جذوره في الحقيقة تعود إلى اختلاف الشخصيات البشرية. فالأشخاص الذين يميلون إلى القول إن طريق القلب أفضل غالبًا ما تكون شخصياتهم عاطفية وحدسية وشاعرية، وتميل إلى التعاطف والإحساس العميق بالآخرين. أما الذين يرون أن طريق العقل هو الأفضل، وأن العلوم مثل الفيزياء والكيمياء والأحياء تفسر أسرار الكون، فهم في العادة أشخاص عقلانيون ومنطقيون وواقعيون وعمليون.

ومن هنا يمكن القول إن الخلاف بين الفلسفة العقلية والفلسفة القلبية هو في جزء كبير منه خلاف في طبيعة الشخصية الإنسانية .فالشخصية نفسها هي التي تدفع الإنسان – غالبًا دون وعي – إلى تبني منهج فكري معين دون غيره. كما أن العالم الروحي نفسه من الصعب جدًا اقتحامه أو إدراكه إدراكًا يقينيًا، لأنه عالم غير مكشوف للبشر بالكامل، وقد شاء الله أن يبقى جزء كبير منه غيبًا لا يدركه الإنسان إدراكًا مباشرًا.

ومن النتائج المترتبة على كون الفلسفة الهرمسية فلسفة قلبية أنها تعتمد كثيرًا على الرموز والمصطلحات الغامضة .فالرمزية في الفلسفة الهرمسية ليست مجرد أسلوب أدبي، بل هي نتيجة طبيعية لطبيعة هذه الفلسفة نفسها. فالفلسفة القلبية تقوم على التأويل؛ أي إن المفاهيم فيها ليست محددة تحديدًا صارمًا، بل يمكن أن تختلف تفسيراتها من شخص إلى آخر بحسب مشاعره وتجربته الروحية.

فمثلًا، عندما يتحدث الأشخاص ذوو النزعة القلبية عن الله أو عن الوجود، فإن تأويلاتهم قد تختلف اختلافًا كبيرًا، لأن كل واحد منهم يعبر عن تجربته الداخلية الخاصة. ونتيجة لذلك فإن التعبير عن هذه الأفكار يتم غالبًا عبر الرموز والاستعارات بدل التعريفات الدقيقة. وهذا ما يجعل قراءة النصوص الهرمسية صعبة أحيانًا، لأنها مليئة بالإشارات الرمزية التي تحتاج إلى تفسير وتأويل.

ويرتبط هذا الغموض أيضًا بطبيعة الشخصية العاطفية نفسها؛ فالأشخاص الذين تغلب عليهم العاطفة والحدس قد يعانون أحيانًا من التناقض الداخلي .ذلك أن المشاعر بطبيعتها متغيرة ومتقلبة، وعندما يعتمد الإنسان على مشاعره وحدها في التفكير فقد يجد نفسه أمام أفكار متناقضة أو غير مستقرة. ولهذا السبب نجد أن بعض الفلاسفة ذوي النزعة القلبية لا يقدمون تعريفات دقيقة وواضحة للمفاهيم التي يتحدثون عنها.

فعلى سبيل المثال، لو طلبت من بعضهم تعريفًا واضحًا لمفهوم مثل النوس (العقل الكلي) أو غيره من المفاهيم الهرمسية، فقد لا يقدم تعريفًا منطقيًا دقيقًا، بل يقول إن هذا أمر يُدرك بالقلب ويُحس إحساسًا وجدانيًا، لا شيئًا يمكن شرحه بالعقل. ومن هنا ينشأ الغموض في التعبير؛ لأن المفهوم نفسه غامض في ذهن صاحبه، فيضطر إلى التعبير عنه بلغة رمزية أو شعرية.

أما الفلاسفة العقليون، فإنهم يميلون إلى الوضوح والدقة في التعبير؛ لأن منهجهم يعتمد على البرهان والتحليل. ولذلك فهم لا يحتاجون عادة إلى استخدام الرموز الغامضة، بل يفضلون التعريفات المحددة والمفاهيم الواضحة.

وفي الفلسفة الهرمسية تظهر أيضًا موضوعات مثل التناسخ والأبراج، وقد ورد ذكر هذه الموضوعات في كتاب *The Divine Pymander.* ويرجع سبب تناول هذه الموضوعات إلى أنها موضوعات دينية وميتافيزيقية غامضة، وهي تتناسب مع طبيعة الفكر الهرمسي الذي يميل إلى الغيب والرمزية والتأويل.

وعند الحديث عن الهرمسية يبرز سؤال مهم :هل الهرمسية فلسفة أم دين؟ وقد اختلف الباحثون في الإجابة عن هذا السؤال. فبعضهم يرى أنها فلسفة، وبعضهم يراها دينًا، بينما يرى آخرون أنها مزيج بين الاثنين. ويمكن القول إن الهرمسية في الواقع مذهب مركب يجمع عناصر من الفلسفة والدين معًا.

فالهرمسية ليست دينًا منظمًا له مؤسسة دينية أو سلطة مركزية، كما هو الحال في بعض الأديان التي تمتلك هرمًا كهنوتيًا واضحًا. كما أنها ليست فلسفة عقلية خالصة ذات منهج منطقي صارم. بل هي تقليد فكري مفتوح، يجمع أفكارًا من حضارات متعددة ومن اتجاهات مختلفة.

فنجدها مثلًا تتفق مع الأديان في الإيمان بوجود الله وبأهمية التقوى والسلوك الأخلاقي، وفي الوقت نفسه تستخدم مفاهيم فلسفية مثل اللوجوس والنوس والعقل الكلي وغيرها من المصطلحات الفلسفية. ولذلك يمكن وصفها بأنها مذهب فكري يجمع بين الفلسفة والدين.

وقد أعيد الاهتمام بالفكر الهرمسي في أوروبا خلال عصر النهضة، عندما نشطت حركة الترجمة وانتقل كثير من النصوص القديمة إلى اللغات الأوروبية. وقد نظر بعض المفكرين الأوروبيين إلى الهرمسية بوصفها تقليدًا فلسفيًا غامضًا يحمل أسرار الحكمة القديمة. وفيما بعد أصبحت الهرمسية جزءًا من التيارات التي تندرج ضمن ما يسمى بعلم الـ Occult أو العلوم الباطنية.

ومع ذلك فقد واجهت الهرمسية معارضة شديدة من بعض رجال الدين في مختلف الديانات، لأن نصوصها تحتوي على أفكار تخالف التعاليم الدينية التقليدية. ولذلك صدرت في بعض الفترات فتاوى أو قرارات تمنع تداول هذه الكتب أو تحذر منها.

وبعد هذه المقدمة يمكن الانتقال إلى الحديث عن كتاب The Divine Pymander of Hermes Trismegistus، وهو أحد النصوص الهرمسية المهمة. ويُنسب هذا النص إلى هرمس مثلث العظمة، وقد ترجمه إلى الإنجليزية جون إيفرارد. ويقع هذا الكتاب ضمن الملكية العامة، ولذلك يمكن نشره وشرحه بسهولة.

ويتكون الكتاب من سبعة عشر فصلًا، ويبدأ هرمس في الفصل الأول بمخاطبة ابنه تات، فيقول له: (يا بني، اكتب هذا الكتاب من أجل الإنسانية ومن أجل التقوى تجاه الله). أي إن

هرمس يرى أن كتابة هذا النص هي خدمة للبشرية، وفي الوقت نفسه عمل صالح يتقرب به إلى الله.

ثم يقرر هرمس فكرة أساسية، وهي أن معرفة الأشياء على حقيقتها هي الطريق الأصدق إلى الحقيقة .فالفلسفة القديمة كانت ترى أن الطريق إلى الحكمة يتطلب التعلم والدراسة والتأمل في طبيعة الكون. ومن يسلك طريق المعرفة يصل في النهاية إلى إدراك النظام الذي يحكم العالم، وإلى الإيمان بوجود خالق يدبر هذا الكون.

ولهذا يقول هرمس إن الإنسان الذي يدرس طبيعة الأشياء ويتأمل في كيفية ترتيبها وإدارتها سيدرك أن وراء هذا الكون خالقًا حكيمًا ومدبرًا عظيمًا .وعندما يدرك الإنسان ذلك فإنه يشعر بالامتنان والشكر لهذا الخالق، كما يشكر الابن أباه الصالح والمدبر الحكيم.

ويربط هرمس هنا بين التقوى والحقيقة؛ فهو يرى أن من يشكر الخالق يكون تقيًا، ومن يكون تقيًا يدرك الحقيقة. فالتقوى تقود إلى التأمل، والتأمل يقود إلى الحكمة، والحكمة تقود في النهاية إلى معرفة الحقيقة.

وفي الفلسفة القديمة كان الالتزام الأخلاقي جزءًا أساسيًا من طريق الحكمة. فالفلاسفة مثل فيثاغورس وغيرهم كانوا يفرضون على أتباعهم نظامًا أخلاقيًا صارمًا يهدف إلى تهذيب النفس وضبط الشهوات. وكان الاعتقاد السائد أن الإنسان الذي ينغمس في الملذات الدنيوية يفقد قدرته على التأمل العميق، بينما الإنسان الزاهد يكون أكثر قدرة على إدراك الحقائق الكبرى.

ومن هنا يظهر أن فلسفة هرمس مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالعالم الروحي والعالم العلوي؛ أي بعالم الله والملائكة والروح والمعاني غير المرئية. وليس المقصود بالعالم الروحي هنا السحر أو الشعوذة، بل المقصود به عالم المعاني العليا التي لا تُدرك بالحواس المباشرة.

المقالة 10 من شرح العلوم الهرمسية

بسم الله الرحمن الرحيم. نبدأ بعون الله تعالى إكمال شرح الفلسفة الهرمسية، وسننتقل في هذا الموضع من الكتاب الأول إلى الكتاب الثاني، أو من الفصل الأول إلى الفصل الثاني، على أن نعود لاحقًا إلى بعض ما ورد في الفصل الأول. أما الفصل الثاني فيُعرف باسم (بيوماندريس)(Poimandres) ، وهو فصل يتحدث فيه هرمس عن رؤيا أو كشف روحي حصل له أثناء حالة من التأمل العميق.

يقول هرمس في بداية هذا الفصل: (بينما كنت مشغولًا تفكيرًا جديًا في الأشياء الكائنة). وهنا يمكن الوقوف قليلًا عند هذه العبارة؛ إذ إن المقصود منها ليس مجرد التفكير العادي، بل التأمل العميق في طبيعة الوجود وفي أسرار الكون. وهذه في الحقيقة عادة الحكماء والفلاسفة، إذ إنهم دائمًا ما ينظرون في خلق الله ويتدبرون في الكون ويحاولون فهم النظام الذي يحكم العالم. فالتأمل في الكون، والنظر في تفاصيله، ومحاولة فهم العلاقات التي تربط بين أجزائه، كلها من سمات الحكمة والتفكر الفلسفي.

ويذكر هرمس أنه بينما كان غارقًا في هذا التفكير العميق، ارتفعت قواه العقلية واشتد تأمله إلى درجة أنه كاد ينفصل عن العالم المادي. ففي بعض الأحيان يصل الإنسان أثناء التفكير العميق إلى حالة لا يعود فيها مرتبطًا بالحواس المادية ارتباطًا قويًا، وكأنه يغيب عن العالم المحيط به. ويشبه هرمس هذه الحالة بحالة من النعاس الخفيف الذي قد يصيب الإنسان بعد الشبع من الطعام أو بعد الإرهاق الشديد، حيث تخفّ سيطرة الحواس الجسدية.

وفي أثناء هذه الحالة، يذكر هرمس أنه رأى كائنًا ذا هيئة عظيمة وقامة هائلة، كأن عظمته لا حدّ لها. وكان هذا الكائن يناديه باسمه ويخاطبه قائلًا: (ماذا تريد أن تسمع وترى؟ وماذا تريد أن تفهم لتتعلم وتعرف؟). وهنا يلمّح هرمس إلى أنه تلقّى نوعًا من الكشف أو الإلهام الروحي، وكأن هذا الكائن يعرض عليه أن يكشف له أسرار الوجود وأسرار الكون.

فيجيب هرمس بسؤال بسيط: (من أنت؟). فيقول له الكائن: (أنا بيوماندريس، عقل الرب الأعظم، الإمبراطور المطلق. أعلم ما ترغب فيه، وأنا حاضر معك دائمًا). وقد فسر بعض الناس هذا النص على أن هرمس كان نبيًا أو صاحب وحي، كما يعتقد بعض الصابئة، بينما يرى آخرون أن (بيوماندريس) ليس كائنًا مستقلًا، بل هو العقل الكلي الذي يتحدث عنه الفلاسفة. ففي الفلسفات القديمة كثيرًا ما نجد تصورًا يقول إن الله هو المبدأ الأعلى، وتحت هذا المبدأ يوجد عقل كلي يدبر الكون وينظم شؤونه.

بعد ذلك يقول هرمس إنه طلب أن يتعلم (الأشياء الكائنة)، أي أن يفهم طبيعة العالم وما يتكون منه. لكن المقصود هنا ليس العلم التجريبي بالمعنى الحديث، بل المعرفة الفلسفية بطبيعة الكون. ففي الفلسفة القديمة كان الاعتقاد السائد أن العالم يتكون من عناصر أساسية مثل الماء والهواء والتراب والنار، وكان هذا تفسيرًا فلسفيًا لطبيعة المادة.

ويريد هرمس أيضًا أن يفهم طبيعة الأشياء وأن يعرف الله؛ لأن معرفة الله هي الغاية القصوى لكل حكيم .فالإنسان عندما يتأمل في خلق الكون يدرك أن هناك خالقًا أوجد هذا الكون ونظمه. والله في نظر الفلاسفة هو الحقيقة المطلقة، بينما الحقائق التي نراها في العالم هي حقائق نسبية وغير كاملة.

فالعالم المادي متغير وزائل، أما الله فهو الثابت الذي لا يزول. ولذلك فإن نهاية كل بحث فلسفي عميق تقود في النهاية إلى إدراك وجود الخالق. كما أن الله، بحسب التصور الديني، هو مصدر الخير؛ إذ إن التعاليم الأخلاقية التي جاءت بها الأديان تدعو إلى الخير والعدل والإحسان، مثل الأمر بالإحسان إلى الجار، والنهي عن القتل والسرقة والكذب. ومن هنا استنتج الحكماء أن الله هو الغاية العليا والمنتهى الأخير لكل حكيم وفيلسوف.

بعد ذلك يواصل هرمس حديثه فيقول إنه سأل: (وكيف يمكنني أن أعرف هذه الأمور؟). فأجابه بيوماندريس قائلًا: (ضعني في عقلك، وتأملني، واسألني عمّا تريد أن تعرف). أي إن المعرفة هنا تأتي من التأمل والتركيز العقلي.

ويذكر هرمس أنه بمجرد أن قال له ذلك، تغيّرت هيئة الكائن فجأة، وانفتحت أمامه جميع الأشياء، ورأى مشهدًا لا نهائيًا. ويصف هرمس هذه الرؤية قائلًا إن كل الأشياء تحولت إلى نور صافٍ جميل، وإن نفسه امتلأت بفرح عظيم عند رؤية هذا النور.

ويجب هنا أن نتوقف قليلًا عند مفهوم النور في الفلسفة؛ فالنور عند الفلاسفة لا يعني الضوء الحسي فقط، بل يرمز إلى المعرفة والحقيقة. فالنور الحقيقي هو أن يعرف الإنسان حقائق الأشياء، وأن يفهم طبيعة الوجود. وليس المقصود بالنور المناصب أو السلطة أو الثروة، بل العلم والمعرفة العميقة.

ولذلك فإن شعور هرمس بالفرح عند رؤية هذا النور أمر طبيعي؛ لأنه شعر أنه وصل إلى الحقيقة وأزال عن نفسه حجاب الجهل والوهم.

ثم يذكر هرمس أنه بعد هذه الرؤية النورانية ظهر ظلام أخذ يتشكل تدريجيًا بصورة مخيفة. ويمكن تفسير هذا الظلام بعدة طرق؛ فربما يرمز إلى الشر الذي يظهر إلى جانب الخير، أو إلى الجانب المظلم من الوجود. ففي كثير من الفلسفات يُنظر إلى العالم على أنه ساحة صراع بين الخير والشر.

فالخير والشر غالبًا ما يظهران معًا في العالم، ولا يمكن إدراك أحدهما إلا بوجود الآخر. ويستشهد البعض في هذا السياق بقصة إبليس في القرآن، إذ يمثل إبليس رمز الشر، بينما يمثل الله مصدر الخير. ومن هذا المنظور يُنظر إلى الكون أحيانًا على أنه مسرح لصراع رمزي بين هذين المبدأين.

ثم يذكر هرمس أن صوتًا حزينًا خرج من هذا الظلام، وكأنه صوت غير واضح المعالم، مما يرمز إلى أن الشر غالبًا ما يكون غامضًا وغير واضح.

بعد ذلك يقول هرمس إن كلمة مقدسة خرجت من النور واتحدت بالطبيعة .وهذه الفكرة تعبر عن مبدأ فلسفي مهم، وهو أن المعاني الروحية يمكن أن تتجسد في صور مادية. فالفكرة

الإلهية أو المعنى الروحي قد يظهر في صورة مادية مثل إنسان صالح أو رمز من رموز الخير.

ثم يذكر هرمس أن نارًا نقية خرجت من الطبيعة واتجهت نحو الأعلى، وأن الهواء المضيء تبعها. وفي الفلسفة القديمة كان لكل عنصر معنى رمزي؛ فالنار كانت ترمز إلى الحكمة أو النور العقلي، بينما كان الهواء يرمز إلى الفكر والعقل.

فالنار تشبه الحكمة لأنها تضيء، والهواء يشبه الفكر لأنه يحمل المعاني وينشرها. ولذلك يمكن القول إن الفكر هو أساس الحكمة؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يصبح حكيمًا إلا إذا تأمل وفكر في الأمور بعمق.

ثم يذكر هرمس أن الأرض والماء بقيا ممتزجين معًا في الأسفل. ويمكن تفسير ذلك رمزيًا؛ فالماء يرمز أحيانًا إلى العواطف والروح، بينما ترمز الأرض إلى الإرادة والثبات. وكما أن الماء والتراب يمتزجان في الطبيعة ليشكلا الطين، كذلك تحتاج الروح إلى الإرادة لكي تتحقق في الواقع.

فالعاطفة وحدها لا تكفي إذا لم تكن هناك إرادة، والإرادة وحدها لا تكفي إذا لم تكن هناك عاطفة تحركها. ومن هنا يمكن القول إن الروح والإرادة يعملان معًا كما يعمل الماء والأرض في الطبيعة.

وفي موضع آخر يذكر بيوماندريس قوله: (أنا النور، أنا العقل). أي إنه يعرّف نفسه بأنه المبدأ النوراني والعقل الذي نظم الكون. فالعقل هنا لا يعني العقل البشري، بل المبدأ المنظم الذي خلق العالم بنظام ودقة.

وهذا المفهوم لا يختلف كثيرًا عن بعض التصورات الدينية التي ترى أن الله خلق الكون بنظام محكم، وأن الكون ليس نتيجة فوضى أو عبث، بل نتيجة حكمة وتدبير.

ويقول بيوماندريس إن هذا النور هو الذي كان موجودًا قبل ظهور الطبيعة المادية. ويُقصد بالطبيعة الرطبة هنا العالم المادي؛ لأن الحياة في نظر القدماء ترتبط بالرطوبة والماء. فكل ما يجف يموت، وكل ما يحتوي على الرطوبة يمكن أن تنشأ فيه الحياة.

ومن هنا اعتبر هرمس أن العالم ظهر من حالة من الظلمة أو اللاشكل، ثم جاء النور الذي نظم هذا الوجود. وليس المقصود بالظلمة هنا الشر، بل الحالة السابقة لظهور النظام والوجود المنظم.

ثم يذكر أن (الكلمة المضيئة) التي خرجت من العقل هي (ابن الله). والمقصود بهذا التعبير ليس المعنى العقائدي المسيحي، بل معنى فلسفي رمزي، وهو أن العالم أو النظام الكوني صادر عن العقل الإلهي ومنبثق عنه.

وهكذا يحاول النص الهرمسي أن يفسر نشأة الكون بطريقة رمزية تجمع بين الفلسفة والدين، حيث يظهر النور بوصفه رمز المعرفة، والعقل بوصفه المبدأ المنظم، والطبيعة بوصفها المجال الذي تتجلى فيه هذه المبادئ.

إن المقصود من التأمل في الكون ليس أن يُفهم منه أن الله متجزئ أو أن الأشياء أجزاء مادية من ذاته، فليس هذا المراد إطلاقًا، بل إن المقصود أن كل ما في هذا الوجود يدل على الخالق ويشير إليه. فعندما يتأمل الإنسان في هذا الكون الواسع الشاسع، وفي نظامه البديع وترتيبه الدقيق، يصل إلى نتيجة مفادها أن لهذا الكون خالقًا حكيمًا. ومن خلال هذا التأمل يدرك الإنسان أن هذا الخالق خيرٌ محض، وعقلٌ كامل، ونظامٌ ونور. ومن هنا جاءت الفكرة التي عبّر عنها هرمس بأن "الكلمة المضيئة المتلألئة الصادرة من العقل هي ابن الله"، والمقصود بذلك أن كل ما صدر عن الخالق وكل ما خلقه الله إنما يدل عليه ويقود إليه، فمن خلال المخلوقات نستدل على الخالق.

ولهذا سأل هرمس: كيف يكون ذلك؟ فجاءه الجواب: افهم الأمر على هذا النحو؛ إن الذي فيك يبصر ويسمع. أي إن الحواس التي يملكها الإنسان، كالسمع والبصر، والقدرة على

الإدراك والفهم، إنما هي شواهد على وجود الخالق. فالبصر الذي ترى به، والسمع الذي تسمع به، والعقل الذي تفكر به، كلها تدل على عظمة الخالق، وتشير إلى أن الإنسان واقع تحت رعاية إلهية وعناية ربانية. فقولهم: "ذلك الذي فيك يبصر ويسمع هو كلمة الرب" معناه أن هذه القدرات الإنسانية دليل من الأدلة على وجود الله، وأنها علامة من علامات حكمته في خلق الإنسان.

ثم يوضح النص أن العقل الإلهي والأب الإلهي لا يختلفان، وأن اتحادهما هو الحياة. والمقصود بهذا المعنى أن الله يخلق الجسد من الهيولى المادية، من الطين أو المادة، ثم يضع فيه روحًا من عالم النور، روحًا تدل على وجوده وتشير إليه. فالروح الإنسانية ليست من عالم الشر أو النقص أو الخطأ، بل أصلها من عالم أعلى. ولذلك فإن الروح التي أودعها الله في الإنسان إنما تدل عليه وتشير إليه، فهي ليست مساوية لله ولا مطابقة له، لكنها علامة عليه وشاهد من شواهده في خلقه. ومن اتحاد الجسد المادي مع الروح النورانية تنشأ الحياة التي يعيشها الإنسان.

ثم يشكر هرمس معلمه على توضيح هذه الحقائق العميقة، وعلى كشف هذه المعاني الفلسفية والوجودية التي تحتاج إلى تأمل طويل وتدبر عميق. فهذه المسائل ليست من الأمور التي تُفهم بسهولة، بل هي مسائل تحتاج إلى تركيز وتفكير طويل، ولا تنكشف إلا للقلة التي تسعى إلى الحكمة وتتأمل في أسرار الوجود.

لكن المعلم يجيبه قائلًا: تأمل أولًا النور الذي في عقلك واعرفه. وهذه قاعدة مهمة في الفلسفة الروحية، وهي أن الإنسان إذا تأمل في نفسه بصدق وعمق استطاع أن يدرك كثيرًا من الحقائق الوجودية. فمعرفة النفس طريق إلى معرفة الكون، بل طريق إلى معرفة الخالق. فإذا أبصر الإنسان ذاته وتأمل في باطنه، أدرك نور العقل، وأدرك عظمة الوجود، وفهم كثيرًا من أسرار الحياة.

ولهذا يرى بعض الفلاسفة أن الطريق إلى الحقيقة لا يمر فقط عبر دراسة العالم الخارجي كما يفعل علماء الفيزياء والكيمياء، لأن هؤلاء – مع عظيم فضلهم – إنما يدرسون الظواهر الخارجية. أما الباطن العميق للوجود، فيرى بعض الحكماء أن الوصول إليه يكون من خلال التأمل في النفس الإنسانية. فالنفس الإنسانية عالم عجيب يحتوي على إشارات كثيرة إلى طبيعة الوجود.

فعلى سبيل المثال، قد يتأمل الإنسان في نفسه فيجد فيها جوهرًا روحانيًا لا يُدرك بالحواس ولا يُلمس باليد. فيسأل نفسه: ما أصل هذه الروح؟ ومن أين جاءت؟ صحيح أن النصوص الدينية تقول" :قل الروح من أمر ربي"، لكن التأمل العقلي قد يقود الإنسان إلى بعض الحقائق الأولية حول طبيعة الروح، كأن يدرك أنها ليست مجرد مادة، وأن وجودها يدل على وجود خالق أوجدها.

ويشبه ذلك ما ورد في قصة حي بن يقظان لابن طفيل؛ إذ إن حيًا عندما ماتت الغزالة التي ربّته حاول أن يكتشف سر الحياة فيها، فشق بطنها بحثًا عن الشيء الذي كان يحركها فلم يجد شيئًا ماديًا. فعند ذلك أدرك أن هناك شيئًا غير مادي كان يمنحها الحياة، وهو الروح. ومن هنا وصل إلى فكرة أن الحياة ليست مجرد مادة، بل وراءها مبدأ آخر غير منظور.

ومن أمثلة التأمل أيضًا أن الإنسان يلاحظ تغير حاله النفسي وتبدل طباعه. فقد يكون الإنسان غاضبًا في وقت، ثم يصبح هادئًا بعد ذلك، ثم حزينًا أو فرحًا في أوقات أخرى. فيسأل نفسه: لماذا تتغير الطباع هكذا؟ فيستنتج بعض الفلاسفة أن الإنسان مركب من عناصر متعددة أو طبائع مختلفة، كما كانت الفلسفة الطبيعية القديمة تقول إن الكون مؤلف من أربعة عناصر: النار والهواء والماء والتراب. ويرى هؤلاء أن هذه العناصر أو الطبائع تتفاعل في الإنسان كما تتفاعل في الطبيعة.

ومن خلال مثل هذه التأملات قد يصل الإنسان إلى مبدئين أساسيين: الأول أن في الإنسان روحًا غير مادية، والثاني أن هذه الروح لها طبائع متعددة تؤثر في سلوك الإنسان. وهذان المبدآن – في نظر بعض الفلاسفة – يختصران كثيرًا من حقائق الوجود.

ثم ينتقل النص إلى وصف الحالة الشعورية التي قد تصيب الإنسان عند المرور بتجربة روحية أو كشف باطني. إذ يقول هرمس إنه ظل يحدق في معلمه طويلًا حتى ارتعد من هيبته. وهذا الوصف يشير إلى تلك الحالة التي يشعر فيها الإنسان بالدهشة والرهبة عندما يواجه تجربة روحية عميقة، كالرؤيا الصادقة أو الكشف الروحي. فكثيرًا ما يستيقظ الإنسان من حلم عميق أو تجربة روحية وهو يشعر بشيء من الفزع الممزوج بالدهشة، لأن العقل لم يعتد رؤية تلك المعاني بصورة مباشرة.

ثم يقول هرمس إنه أبصر في عقله نورًا لا يُعد. وهنا تظهر فكرة أن في الإنسان قبسًا من النور الإلهي، لا بمعنى أن الإنسان إله، بل بمعنى أن الروح الإنسانية تحمل ميلًا فطريًا إلى الخير والحكمة والاتصال بالعالم العلوي. فالإنسان بطبيعته يميل إلى البحث عن المعنى وعن الحقيقة وعن الخالق، وهذا الميل الفطري هو الذي دفع البشر عبر التاريخ إلى إنشاء الأديان والمذاهب الروحية والفلسفية.

فالإنسان منذ طفولته يطرح أسئلة عن الله وعن الغيب وعن أصل الوجود، أكثر مما يسأل عن الأشياء القريبة منه كالحجر أو الشجر. وهذه الظاهرة تدل على أن في الإنسان نزعة فطرية نحو معرفة المجهول واستكشاف العالم العلوي.

ثم ينتقل النص إلى فكرة أخرى من الأفكار الهرمسية، وهي مبدأ "كما في الأعلى كذلك في الأسفل"، أي إن هناك نوعًا من التناظر الرمزي بين العالم العلوي والعالم السفلي. ويعبّر بعض الشعراء عن هذا المعنى بقولهم:
"وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر."

فالفكرة هنا أن الإنسان يحمل في داخله صورة رمزية للعالم الكبير؛ ففي الطبيعة أربع عناصر، وفي الإنسان أيضًا طبائع تشبه هذه العناصر. وكما أن في السماء كواكب متعددة، يرى بعض الفلاسفة أن في النفس الإنسانية جوانب متعددة كذلك.

لكن ينبغي فهم هذه الأمور على المستوى الرمزي لا الحرفي؛ فالمقصود ليس أن النار أو الهواء أو الكواكب آلهة، بل إن هذه الأشياء يمكن أن تكون رموزًا أو إشارات تساعد الإنسان على فهم نفسه والكون.

وأخيرًا يتحدث النص عن رمز آخر، وهو قول هرمس إن النار محبوسة في قوة رطبة عظيمة. ويرى أن النار ترمز إلى مبدأ الإبداع والحياة، بينما ترمز الرطوبة أو الماء إلى الرحمة والنظام. فالإبداع الإلهي – بحسب هذا التصور الرمزي – لا يكون مجرد طاقة عمياء، بل يكون مقترنًا بالرحمة والتنظيم والحكمة. فلو كان الكون مجرد قوة بلا نظام، لتحولت هذه القوة إلى فوضى تدمر نفسها بنفسها. لكن انتظام الكون ودقته يشيران إلى أن الخلق قائم على حكمة ورحمة، لا على عبث أو فوضى.

المقال 11 في شرح العلوم الهرمسية

بسم الله الرحمن الرحيم. نبتدئ بعون الله إكمال شرح كتاب بيوماندريس الإلهي المنسوب إلى هرمس. وقد وصلنا إلى الفقرة الحادية عشرة، وفيها عبارة تقول :*(إن النار محتواة ومحبوسة في قوة رطبة عظيمة)* .وهذه العبارة في الحقيقة عبارة رمزية، إذ إن فلسفة هرمس تقوم في جانب كبير منها على الرمز والإشارة أكثر مما تقوم على التصريح المباشر. فالنار هنا لا يقصد بها النار المادية فحسب، بل ترمز إلى نار الحياة، ونار الوجود، والحرارة التي تنشأ منها الحياة نفسها. فهذه النار هي المبدأ الحيوي الذي به يتحرك العالم وبه ينبض الوجود.

وقد كان الفلاسفة الطبيعيون القدماء يرون أن العالم يتكون من أربعة عناصر أساسية هي : الماء، والهواء، والتراب، والنار .وكانوا يعتقدون أن لكل عنصر من هذه العناصر وظيفة خاصة في تكوين العالم. فالتراب يمثل القوام والثبات وتماسك الهيكل، والنار تمثل الحياة والطاقة، والهواء يمثل الحركة والمرونة والخفة، أما الماء فيمثل الرحمة والسيولة واللين. وعندما يقول هرمس إن النار محبوسة في قوة رطبة عظيمة، فإنه يريد أن يرمز إلى أن مبدأ الحياة والإبداع في الكون خاضع لمبدأ آخر أعلى منه، وهو مبدأ الرحمة.

فالماء هنا يرمز إلى الرحمة الإلهية التي تحيط بالوجود كله، بينما ترمز النار إلى الإبداع والخلق. ومعنى ذلك أن الخلق الذي أوجده الله من العدم لا يقوم على مجرد القوة أو الطاقة وحدها، بل يقوم كذلك على الرحمة والتدبير والحكمة. فالله – بحسب هذا التصور – لم يخلق العالم عبثًا ولا فوضى، بل خلقه بعناية وإتقان وتدبير. ولو تصورنا – على سبيل الفرض – أن الخلق وقع بلا رحمة ولا نظام ولا إحكام، لكان الكون فوضى عارمة لا انتظام فيها.

ولهذا فإن الرطوبة أو الماء ترمز إلى الرحمة التي تضبط هذا الإبداع وتمنحه التوازن. أما النار فترمز إلى الإبداع نفسه، أي إلى القدرة على إيجاد الأشياء. ويمكن فهم هذا الرمز إذا تأملنا طبيعة النار نفسها؛ فالنار حين تشتعل لا يكون لها شكل ثابت ولا وزن محدد، بل تتجدد ألسنتها باستمرار. فاللسان الذي يشتعل من النار يختفي بعد لحظة ليحل محله لسان آخر، وكأن النار عملية متكررة متجددة باستمرار. ولهذا كانت رمزًا للإبداع المستمر.

ومن هنا نفهم أن الإبداع ينبغي أن يكون مقرونًا بالرحمة، وأن الخلق ينبغي أن يكون مصحوبًا بالحكمة، وإلا تحولت النار إلى قوة مدمرة تأكل نفسها وتأكل ما حولها. فالماء – في المستوى الرمزي – يحفظ مقام النار، أي يحفظ استمرار الإبداع، لأنه يوفر له الإطار المناسب الذي يمنعه من الانفلات والفوضى. صحيح أن الماء والنار لا يلتقيان في المستوى المادي، لكنهما يلتقيان في المستوى الرمزي؛ فالماء يمثل النظام والرحمة، والنار تمثل الطاقة والإبداع، وباجتماعهما يتحقق التوازن في الوجود.

فلو تخيلنا كونًا بلا نظام ولا تدبير، مليئًا بالزلازل والأعاصير والتصادمات العشوائية، لوجدنا أن القوى الموجودة فيه ستدمر بعضها بعضًا، ولن يبقى شيء من هذا العالم. ولذلك فإن وجود النظام في الكون دليل على أن هذه القوى قد وُضعت في إطار من الحكمة والتنظيم.

ومن المهم هنا أن نتذكر أن فلسفة هرمس فلسفة رمزية إلى حد بعيد؛ فهو لا يصرح بالمعاني دائمًا، بل يلمح إليها بالإشارة والرمز. ولهذا يحتاج فهم نصوصه إلى قدر كبير من التأمل والتدبر.

ثم ننتقل بعد ذلك إلى الفقرة الثانية عشرة، حيث يقول هرمس :*(فهمت هذه الأمور حين رأيت الكلمة، أي بيوماندريس)* .وهنا يصف هرمس بيوماندريس بأنه الكلمة .والمقصود بالكلمة هنا ليس المعنى اللاهوتي المعروف في الديانة المسيحية، بل ينبغي فهمها في سياق الفلسفة التي يتحدث عنها النص. فالكلمة هنا ترمز إلى البيان والتوضيح وإظهار الفكرة.

فالإنسان عندما يفكر في فكرة ما، يقوم أولًا بتنظيمها في عقله، ثم يعبر عنها بالكلام. وكذلك – بحسب هذا التصور – فإن الخلق الإلهي يشبه هذا المعنى؛ إذ إن العالم قد نشأ عن فكرة أو تصور سابق. فكما ينظم الإنسان أفكاره في عقله ثم يعبر عنها بالكلمات، كذلك يُصوَّر الخلق هنا على أنه تنظيم سابق للفكرة ثم إظهار لها في صورة العالم.

ومن هنا شُبّه بيوماندريس بالكلمة، لأنه يمثل العقل الذي أظهر هذا الخلق ونظمه. وبعد ذلك يقول النص إن هرمس شعر بالدهشة، فقال له بيوماندريس :هل رأيت في عقلك تلك الصورة الأصلية التي كانت قبل البداية، والتي لا نهاية لها ولا حد؟

وهذا النص يحمل قدرًا من الغموض، ويمكن فهمه بطريقتين. الطريق الأول أن المقصود بالصورة الأصلية هو الفكرة الأولى التي سبقت وجود العالم. وهذه الفكرة ليست محدودة ولا منتهية، بل هي شبيهة بالأفكار في عقولنا؛ فالأفكار تتولد من أفكار أخرى بلا نهاية، والكلام يقود إلى كلام آخر. فحين يتحدث الإنسان عن فكرة، تقوده تلك الفكرة إلى فكرة ثانية، ثم ثالثة، وهكذا يستمر تسلسل الأفكار.

أما الطريق الثاني في فهم النص فهو أن المقصود بالصورة الأصلية هو تصور الكون قبل ظهوره في صورته المادية. وكأن بيوماندريس يريد أن يلفت نظر هرمس إلى أن العالم الذي يراه الآن له أصل سابق في مستوى آخر، وأن هذا الأصل غير محدود ولا متناهٍ.

ثم يطرح هرمس سؤالًا مهمًا جدًا في سياق الفلسفة الطبيعية، إذ يقول :من أين أو مما تصنع عناصر الطبيعة؟ وهذا السؤال يعد من أقدم الأسئلة الفلسفية التي طرحها الإنسان عندما بدأ يتأمل العالم من حوله. فالإنسان عندما يرى الأشجار والجبال والبحار والنجوم، يتساءل: من أين جاءت هذه الأشياء؟ وما أصلها الأول؟

ومن الممكن تناول هذا السؤال بطريقتين: طريقة عقلية تحليلية، وطريقة روحية تأملية. وأنا هنا أميل إلى الطريقة الروحية، لأن كثيرًا من الحكماء يرون أن أسرار الوجود لا تُفهم بالعقل

وحده، بل تحتاج أيضًا إلى بصيرة القلب. فعندما يتأمل الإنسان الكون تأملًا عميقًا، يشعر بحالة من الدهشة والوجل تدفعه إلى البحث عن الأصل الأول لكل هذه الظواهر.

ومن هنا يمكن القول إن العالم قد صدر عن فكرة، وهذه الفكرة أصلها الخالق. فالوجود كله – في هذا التصور – نور على نور، ورحمة على رحمة، ولا يصدر عن الخير المطلق إلا خير. وقد ورد في الحديث الشريف معنى قريب من ذلك حين قيل :(الخير كله منك، والشر ليس إليك)، أي إن الخير من الله، أما الشر فيرتبط بأفعال الإنسان واختياراته.

فالعالم الذي خلقه الله في أصله قائم على الخير والنظام، أما الشر الذي نراه في بعض مظاهره فيرتبط بسلوك الإنسان أو باختلال التوازن في بعض جوانب الطبيعة. فالإنسان – بسبب ميله إلى الشهوات أو المصالح – قد ينحرف عن طريق الخير، فيظهر الشر في أفعاله.

وعندما نعود إلى السؤال :من أين جاءت عناصر الطبيعة؟ يمكن أن نقول – في إطار هذا التصور – إنها جاءت من روح ومن مادة. فالمادة تمثل الجانب الجسدي الذي يعتريه التغير والفساد، أما الروح فتمثل المبدأ الحي الذي يهب الأشياء معناها وحركتها. فالجسد قابل للفساد والزوال، أما الروح فهي مرتبطة بالمبدأ الإلهي الأعلى.

ويقول بيوماندريس جوابًا عن هذا السؤال :إن عناصر الطبيعة صدرت عن إرادة الله ومشورته، أي عن فكره. ومن هنا شبّه الفكر بالنار؛ لأن النار تبدع من العدم وتظهر فجأة، وكذلك الفكرة قد تخلق عالمًا كاملًا في العقل قبل أن يظهر في الواقع.

ثم يقول النص إن الله عندما أخذ الكلمة وتأمل العالم الجميل في صورته الأصلية، خلق هذا العالم وفق مبادئ أو بذور روحية صادرة من ذاته. والمقصود بالبذور الروحية أن الخالق أوجد الأصول والمبادئ الأولى للوجود، ثم تفرعت منها الكائنات والظواهر المختلفة.

وهذا التصور موجود في بعض الفلسفات القديمة، حيث يقال إن الله خلق الأسس الأولى للعالم، ثم تطورت الكائنات بعد ذلك انطلاقًا من تلك المبادئ. ومع ذلك فإن هذا التصور

يختلف عن الرؤية الإسلامية التي تقول إن الله خالق كل شيء، أي إنه خالق الأصول والفروع معًا.

ثم ينتقل النص إلى الحديث عن العقل، فيقول إن العقل هو الإله، وقد شُبّه الإله بالعقل لأن الخلق – بحسب هذا التصور – يتم عبر التدبير والحكمة، كما يفكر الإنسان قبل أن يقوم بأي عمل. وتوجد فكرة مشابهة في الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، خاصة عند أفلوطين، الذي تحدث عن سلسلة من العقول تبدأ بالعقل الأول وتنتهي بالعقل العاشر.

ويقول النص بعد ذلك إن العقل الإلهي أخرج بكلمته عقلًا آخر أو صانعًا، ثم خلق سبعة مدبرين آخرين، وهم الكواكب السبعة. وكان الاعتقاد القديم أن لكل كوكب روحًا تدبر جانبًا معينًا من جوانب العالم. فالمريخ مثلًا يرتبط بالحروب والقوة، والشمس ترتبط بالسلطة والقيادة، وزحل يرتبط بالحكمة والعلم، وهكذا.

وكان يُعتقد أن هذه الكواكب تدبر العالم المحسوس، وأن تدبيرها هذا يسمى القضاء والقدر. وهذا التصور كان شائعًا في الفكر القديم وفي بعض مدارس التنجيم، حيث كان يُعتقد أن مواقع الكواكب تؤثر في حياة البشر وأحداث العالم.

ومع ذلك فإن هذا التصور يبدو محدودًا إذا نظرنا إليه من منظور العلم الحديث؛ فالكون أوسع بكثير من النظام الشمسي، وقد اكتشف الإنسان وجود مجرات لا تحصى. ولذلك فإن فكرة أن الكواكب السبعة وحدها تدبر الكون تبدو فكرة قاصرة إذا قيست باتساع الكون الهائل.

المقالة 12 في شرح العلوم الهرمسية

بسم الله الرحمن الرحيم

نبتدئ بعون الله إكمال شرح الفقرة الرابعة عشرة من الفصل الثاني من كتاب بيوماندريس الإلهي .وقد وصلنا في الشرح إلى العبارة التي تقول :(كلمة الله هي الأساس النقي للطبيعة) . وقد تحدثنا في الفصول السابقة عن معنى (كلمة الله)، وبيّنا أنها لا تُفهم هنا بمعناها اللفظي البسيط، بل تشير في الفلسفة الهرمسية إلى الفكر الإلهي والتنظيم العقلي للخلق؛ أي إلى الفكرة الكلية التي من خلالها يُتقن الخالق صنع الطبيعة ويُحكم نظامها. فـ(كلمة الله) في هذا السياق ترمز إلى العملية التي يقوم بها الخالق الأعظم في تدبير الكون وتنظيمه وإحكام صنعته. وبذلك تكون الطبيعة بما فيها من ظواهر وأشياء – كالسماء والأرض وما بينهما من موجودات – ناتجة عن ذلك الفكر الإلهي المنظم الذي أبدعها وأقام نظامها.

وقد اختلف الفلاسفة والمتكلمون في مسألة خلق العالم: هل هو حادث أم قديم أزلي؟ فالمتكلمون – وخصوصًا في التراث الإسلامي – ذهبوا إلى أن العالم حادث، أي أنه مخلوق بعد أن لم يكن. أما كثير من الفلاسفة، مثل أرسطو وابن سينا وابن رشد ومن سار على منهج المشائين، فقد قالوا بقدم العالم، أي أنه صادر عن الخالق منذ الأزل. وفي المقابل نجد أفلاطون وبعض الفلاسفة الإشراقيين يميلون إلى القول بحدوث العالم. غير أننا هنا لا نقف عند جدالات الفلاسفة والمتكلمين الطويلة، إذ إن مقصدنا هو البحث عن الحكمة والمعنى العام لا الدخول في النزاعات الكلامية المعقدة.

وعليه، فإن (كلمة الله) تُعد الأساس الطاهر الذي قامت عليه الطبيعة. فالفكر الإلهي هو الذي أبدع النظام الكوني وأحكم صنعته. وفي الفلسفة الهرمسية يرد أيضًا مفهوم العقل الكوني، وهو مرتبة دون مرتبة الخالق الأعظم. فهذا العقل يُعدّ أول المخلوقات أو من أعظمها، ويُقال

إنه المسؤول عن تدبير الموجودات وتنظيمها. ويُشار إليه أحياناً بأنه إله النار والروح، بمعنى أنه مبدأ الحركة والحياة في الكون. وقد قيل إن الخالق عندما أراد إبداع الكون أبدع العقول العشرة التي تنتظم بها الأفلاك والعوالم، ومن خلالها يتم تدبير النظام الكوني.

وبناءً على ذلك، فإن الطبيعة وهذه العقول الكونية تشترك في أصل واحد، لأنها جميعًا صادرة عن فكر الخالق الأعظم .ولهذا يقال إنها (من جوهر واحد) بمعنى أنها ترجع في أصلها إلى المصدر الإلهي. أما العناصر السفلى في الطبيعة – كالأحجار والنباتات وبعض الكائنات الحية – فهي موجودات لا تملك العقل الكامل، بل تخضع لنظام الكون دون أن تشارك في إدراكه. فالطبيعة السفلى تشمل الجمادات وبعض الكائنات التي تعمل بدافع الغريزة أكثر من العقل.

أما العقل الكوني، فهو – بحسب التصور الهرمسي – يعمل مع كلمة الله، أي أنه خاضع للإرادة الإلهية ومنفذ لها. فكل ما يقوم به من تدبير أو خلق أو تنظيم إنما يتم بأمر الخالق. ومن مهامه أيضًا إدارة الدوائر السماوية، أي الأفلاك والكواكب التي كان القدماء يعتقدون أنها تحيط بالعالم وتتحرك في نظام دقيق. وكان الاعتقاد القديم يقسم السماء إلى أفلاك متعددة، مثل فلك زحل والمشتري والمريخ والشمس وعطارد والزهرة والقمر، إضافة إلى الفلك الأعظم الذي يحيط بها جميعًا. وقد تطورت المعرفة الفلكية في العصر الحديث، فاكتُشفت كواكب وأجرام أخرى لم يكن القدماء يعلمون بها، لكن الفكرة الأساسية عندهم كانت أن الكون يتحرك وفق نظام دائري متناسق.

ويرى هرمس أن هذه الأفلاك تدور باستمرار كما تدور العجلة، وأن حركتها تبدو بلا بداية واضحة ولا نهاية محددة. وقد يفهم بعض الفلاسفة من هذا الكلام أن العالم سرمدي، أي أنه دائم الحركة بلا بداية ولا نهاية. لكن يمكن أيضًا أن يُفهم على سبيل المجاز، أي أن العالم قديم جدًا بحيث تبدو بدايته بعيدة عن الإدراك. كما يشير النص إلى فكرة الدوران الكوني أو

(الدورة الكونية)(Cyclic) ، وهي فكرة تقول إن الكون يسير في دورات متكررة من الوجود والتحول.

ومن حركة هذه الأفلاك – كما يشير النص – ظهرت العناصر السفلى للطبيعة والكائنات غير العاقلة، مثل الحيوانات والنباتات. وكأن هذه الموجودات ظهرت كنتيجة لحركة الكون وتفاعلاته، لا بوصفها الغاية الأولى من الخلق.

ثم ينتقل النص إلى فقرة أخرى تقول إن الهواء أنشأ الطيور، والماء أنشأ الكائنات السابحة . وهذه الفكرة تعكس التصور الكوني القديم الذي يربط الكائنات بعناصر الطبيعة. فالطير يُنسب إلى الهواء لأنه يعيش فيه ويتحرك بخفة تشبه خفة الهواء، أما السمك فيُنسب إلى الماء لأنه يعيش فيه ويشبهه في الرطوبة والسيولة. وهذا التصور لا يوافق العلم الحديث، لكنه يعكس طريقة التفكير الكوني عند القدماء الذين حاولوا تفسير العالم من خلال العناصر الأربعة.

كما يذكر النص أن الأرض أنجبت من ذاتها كائنات متعددة، مثل الحيوانات البرية والزواحف. ثم يصف العقل الكوني بأنه حياة ونور، لأنه يستمد نوره من الخالق الأعظم ويقوم بتدبير الكون وفق نظام دقيق. ومن هذا العقل صدر الإنسان، إذ يقول النص إن الإنسان خُلق على صورته. ويمكن فهم هذه العبارة بطريقتين: الأولى أن الإنسان يشبه الخالق من حيث قدراته العقلية والروحية، والثانية أن الإنسان يحمل في روحه ميلًا نحو الخير والكمال يشبه ما ينسب إلى الخالق من صفات الكمال.

ويؤكد النص أن الخالق أحب الإنسان واعتنى به، لأنه يحمل شيئًا من صورة الكمال الإلهي. وليس المقصود بالصورة هنا الشكل الجسدي، بل الصورة المعنوية التي تتجلى في العقل والنور والمعرفة. ولهذا سُلِّم الإنسان معارف كثيرة، لكي يسعى إلى الكمال ويبتعد عن الشرور والنقائص.

غير أن الإنسان – بحسب الرواية الهرمسية – عندما رأى صنائع الخالق في الكون أراد أن يقلده في الخلق والإبداع، فدخل في دائرة الفعل والتكوين. أي أنه سعى إلى المعرفة والابتكار، لأنه بطبيعته يميل إلى اكتشاف المجهول.

ثم يذكر النص أن الإنسان تعلّم من الكواكب السبعة، إذ كان القدماء يعتقدون أن لكل كوكب تأثيرًا خاصًا يمنح الإنسان نوعًا من المعارف أو الصناعات. فكانوا يقولون إن زحل يمنح الحكمة والزراعة، والمشتري يمنح المعرفة الدينية، والمريخ يمنح فنون الحرب، والشمس تمنح القيادة والسياسة، والزهرة تمنح الفن والموسيقى، وعطارد يمنح العلم والكتابة والهندسة. وهذه الأفكار تنتمي إلى علم التنجيم القديم الذي كان يربط بين حركات الكواكب وصفات البشر.

وبعد أن تعلّم الإنسان هذه المعارف، أصبح يسعى إلى معرفة الحقيقة الكبرى، أي معرفة الخالق والنور الأعلى. فطبيعة الإنسان تدفعه دائمًا إلى طلب المعرفة واستكشاف أسرار الوجود.

وفي الفقرات اللاحقة يصف النص كيف أن النفس الإنسانية، بعد أن تعلمت من الكواكب واكتسبت المعرفة، صارت لها قدرة على السيطرة على العالم المادي. فاستطاع الإنسان أن يفهم الطبيعة وأن يسخّرها لخدمته. ثم يشير النص إلى أن الإنسان عندما اكتشف أسرار الوجود رأى صورة نفسه في العالم السفلي، كما لو أنه يرى انعكاسه في الماء.

ويرمز الماء في الفكر القديم إلى العواطف والحدس وأسرار الوجود، بينما ترمز الأرض إلى الصورة المادية لهذه المعاني. وعندما رأى الإنسان هذه الصورة المادية أحبها وأراد أن يتحد بها، أي أن يتجسد في العالم المادي. وهكذا – بحسب الرواية الرمزية – نشأ الجسد المادي للإنسان، بينما بقيت النفس تمثل الصورة العاقلة أو الروحية.

وبهذا المعنى يمكن فهم النص على أنه رمز فلسفي يشرح انتقال الإنسان من عالم الروح إلى عالم المادة، لا بوصفه قصة حرفية. فالإنسان بطبيعته يميل إلى المعرفة وإلى استكشاف الوجود، ولهذا يسعى دائمًا إلى فهم العالم وما وراءه.

وبهذا نكون قد وصلنا إلى ختام هذا الجزء من الشرح، على أن يُستكمل الكلام في المحاضرة القادمة بإذن الله.

بسم الله الرحمن الرحيم. نبتدئ بعون الله إكمال ما كنا نتحدث عنه في الدرس السابقة. فقد وصلنا إلى النقطة الرابعة والعشرين، وذكرنا أن لي تأويلاً آخر لمفهوم الماء في النص الهرمسي. فالماء هنا لا ينبغي أن يُفهم بالمعنى الحرفي المادي، بل يرمز إلى أسرار الوجود وإلى العمق الكامن في الكون. فكما أن الأساطير والأديان والعلوم الكبرى التي تعمّقت في قضايا الكون والوجود كثيرًا ما استخدمت الماء رمزًا للأصل الأول أو للسر الخفي، كذلك في هذا النص يظهر الماء بوصفه مرآةً للوجود وأسراره. وعندما نظر الإنسان في هذا الماء رأى فيه صورة شبيهة بنفسه، فوقع في حب تلك الصورة؛ أي إنه تقبّلها ورغب في الاتحاد بها.

إن هذه اللحظة ترمز إلى إدراك الإنسان لإمكان الوصول إلى أسرار الوجود، فحين رأى أن هناك شيئًا جديدًا يمكن أن يناله، وأنه قادر على أن يكون له دور في المسائل الكبرى مثل الخير والشر والأخلاق، اندفع نحو الاتحاد بتلك الهيئة المائية الرمزية. وما إن نوى ذلك حتى وقع الفعل مباشرة، فـ(وُلدت الصورة غير العاقلة). وغالبًا ما تُفسَّر هذه العبارة على أنها تشير إلى الجسد، غير أنني أميل إلى تأويل مختلف؛ إذ أرى أن (الصورة غير العاقلة) تشير إلى الحالة الوجدانية والعاطفية التي تصيب الإنسان عندما يتأمل في آثار الكون والوجود. فالإنسان في تأمله يمتلك حالتين: حالة العقل، وحالة القلب.

أما حالة العقل فهي حالة التأمل النظري، التي تعتمد على الدراسة والتحليل والمنطق والاستنتاج والربط بين المعطيات. في حين أن الحالة القلبية هي حالة وجدانية شعورية

تصيب الإنسان عندما يتأمل بقلبه في الأمور الكبرى والحقائق العميقة. وعندما يذكر النص أن الطبيعة (أسرعت إذ عشقت ما رأت)، فإن المقصود أن الطبيعة – بما أنها مخلوقة من الكمال الإلهي – تميل بطبيعتها إلى الكمال والاتقان. ولذلك عندما رأت رغبة الإنسان في الوصول إلى الحقيقة والتعمق في أسرار الوجود، أسرعت إلى معاونته على تحقيق ذلك.

ومن هنا يمكن استخلاص قاعدة مهمة، وهي أن الإنسان إذا أراد فعلًا ما بإخلاص – وخاصة إذا كان هذا الفعل مرتبطًا بالخير أو بالبحث عن الحقيقة – فإن الكون نفسه يمهّد له الطريق .فكم من إنسان أدرك رسالته في الحياة، كأن يكون قائدًا أو صاحب مشروع عظيم يخدم مجتمعه، ثم نجد أن الظروف والفرص تتيسر له شيئًا فشيئًا. وكأن الكون يفتح له الأبواب ويساعده على تحقيق غايته. وعلى هذا النحو يمكن فهم قول النص إن الطبيعة احتضنت الإنسان وامتزجت به عندما رأت سعيه نحو معرفة الأسرار الكبرى.

ومن هنا يفسر النص سبب كون الإنسان أسمى من سائر الكائنات الأرضية، إذ إن له طبيعتين: طبيعة فانية، وطبيعة خالدة. فالإنسان فانٍ بجسده، وخالد بجوهره. غير أنني أرى أن لهذه العبارة تأويلاً أعمق؛ فالفناء هنا يمكن أن يرمز إلى المعارف الإنسانية المتغيرة مثل الطب والقانون والهندسة وسائر العلوم التطبيقية التي تتبدل مع الزمن وتتطور مع كل عصر. أما الخلود فيرمز إلى العلوم الجوهرية كالفلسفة والدين والتأملات الوجودية، وهي علوم بقيت ثابتة منذ القدم وتظل حاضرة في كل العصور.

ولهذا، رغم أن الإنسان قد يمتلك فهمًا للأسرار الوجودية الكبرى، فإنه يظل بحاجة إلى العلوم العملية التي تنظم حياته اليومية. فالإنسان خاضع للقدر والمصير، وقد يواجه في حياته مواقف تتطلب معرفة متخصصة. فمن قدر له أن يدخل في نزاع قانوني، مثلًا، يحتاج إلى علم القانون لكي يدافع عن نفسه. وهكذا فإن العلوم العملية تساعد الإنسان على التعامل مع ظروف الحياة، رغم أن العلوم الجوهرية تظل هي الأساس الأعمق.

وهناك تأويل آخر للنص، وهو أن الإنسان عندما انجذب إلى العالم المادي واتحد بالطبيعة نزل إلى العالم السفلي، فأصبح ذا طبيعتين: طبيعة روحية خالدة، وطبيعة جسدية مادية تتغير وتفنى مع مرور الزمن. ولهذا يقول النص إن الإنسان، رغم كونه أسمى من تناغم الكون، أصبح في الوقت نفسه عبدًا لهذا التناغم؛ أي خاضعًا للقوانين الكونية ولتأثير الأفلاك والكواكب.

ثم يصف النص الإنسان بأنه (ذكر وأنثى). وهذه العبارة لا ينبغي فهمها بمعناها الجسدي، بل بمعناها الرمزي. فالذكر هنا يرمز إلى الفعل والمبادرة والتحليل والسعي للسيطرة والاستكشاف. أما الأنثى فترمز إلى التلقي والشعور والتعاطف والحدس. وبذلك يجمع الإنسان في ذاته بين طاقتين :طاقة العقل التي تحلل وتستنتج، وطاقة القلب التي تشعر وتتلقى الإلهام.

ومن الأفضل – في رأيي – أن يوازن الإنسان بين هاتين الطاقتين، فلا يكون عقلانيًا صرفًا ولا حدسيًا صرفًا، بل يجمع بين التحليل العقلي والحدس القلبي. فالعقل يقود الإنسان إلى الفهم المنطقي للأشياء، أما القلب فيمنحه القدرة على الإحساس بالمعاني العميقة التي قد يعجز العقل المجرد عن إدراكها.

ويذكر النص أيضًا أن الخالق نفسه يوصف بأنه (ذكر وأنثى)، وليس المقصود بذلك المعنى الحرفي، بل المقصود أن الخالق يجمع بين المبادرة والترك .فخلق العالم وتنظيمه فعل مبادرة، بينما ترك الكون يسير وفق قوانينه وسننه هو نوع من الإتاحة التي تجعل العالم يدبر نفسه ضمن النظام الذي وضعه الله.

ويمكن تأويل هذه الفكرة أيضًا من ناحية المعرفة. فالمعارف التي تحتاج إلى تحليل وتجربة – كالطب والهندسة والرياضيات – يمكن تسميتها (معرفة ذكرية). أما المعارف التي تعتمد على الحدس والتأمل العميق – مثل التصوف والغنوصية والتأملات الروحية – فهي (معرفة أنثوية). وقد وزع الخالق هذه المعارف بين البشر بحسب قدراتهم واستعداداتهم.

وعندما يقول هرمس: (أنت عقلي وأنا مغرم بالعقل)، فإنه لا يقصد العقل المنطقي البحت، بل يقصد الاتجاه نحو معرفة الأسرار الإلهية .فكأن هرمس يقول إن جوهره متجه نحو مصدر المعرفة العليا، وإن غايته في الحياة هي كشف الحجب عن أسرار الكون. وهذه حالة معروفة لدى كثير من الفلاسفة، إذ يشعرون بقرب روحي من الحقيقة الإلهية عندما يتأملون في نظام الكون وجماله.

غير أن هذه (العلوم النورانية) التي يقصدها هرمس تختلف اختلافًا كبيرًا عما يسمى اليوم بعلوم الأوكولت .فالأوكولت في كثير من الأحيان خليط من السحر والتنجيم والخيمياء وممارسات غريبة تهدف إلى السيطرة على القوى الخفية. أما العلوم النورانية الحقيقية فهي علوم تهدف إلى معرفة الله والوجود والخير، ولا علاقة لها بالسحر أو استدعاء الأرواح أو الممارسات التي تنفر منها الفطرة الإنسانية.

ولهذا يقول النص إن هذا السر العظيم ما يزال إلى اليوم خفيًا ومكنونًا، رغم أنه ظاهر لمن يبحث عنه بصدق. والسبب أن البشر انشغلوا بالجدل والمنطق المعقد والجدالات الفلسفية التي قد تبعد الإنسان عن اليقين والطمأنينة. فمن أراد الارتقاء في العلوم الروحية ينبغي أن يبتعد عن الجدل العقيم وأن يتجه إلى التأمل الصادق في أسرار الوجود.

وعندما يقول النص إن الطبيعة امتزجت بالإنسان فأخرجت (عجبًا عجيبًا)، فإن المقصود أن الإنسان عندما عرف أسرار الطبيعة وتمكن من فهمها وتسخيرها وصل إلى قوة عظيمة، سواء على المستوى المادي أو الروحي. وقد ارتفع بذلك إلى مرتبة عالية حتى كاد يقارب مرتبة الملائكة. ويُستدل على ذلك بقوله تعالى :﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾، إذ يدل هذا على أن للإنسان مكانة خاصة في نظام الوجود.

ثم يذكر النص أن الطبيعة ولّدت سبعة بشر بحسب طبائع (الحكام السبعة)، أي الكواكب السبعة المعروفة في الفلك القديم. فهذه الكواكب – بحسب التصور القديم – تمنح الإنسان

قوى مختلفة، مثل قوة العلم أو التقوى أو الشهوة أو غيرها. وبذلك يحمل الإنسان في داخله سبع قوى تمثل هذه التأثيرات المختلفة.

وبهذا يكون الإنسان كائنًا مركبًا يجمع بين قوى متعددة، بعضها روحي وبعضها مادي، وبعضها عقلي وبعضها عاطفي. ومن خلال التوازن بين هذه القوى يستطيع الإنسان أن يسلك طريق المعرفة وأن يرتقي في فهم أسرار الوجود.

وسنكمل – بإذن الله – شرح بقية هذه الأفكار في الدرس القادمة.

المقالة 13 في شرح العلوم الهرمسية

بسم الله الرحمن الرحيم.

نبتدئ بعون الله إكمال الفصل الثاني من كتاب بيوماندريس – الرسالة الإلهية، وقد وصلنا إلى الفقرة التاسعة. يقول النص إن الطبيعة لم تمكث، بل على الفور ولدت سبعة بشر .

والمقصود بهذه العبارة – في التأويل الذي أقدمه – ليس وجود سبعة أشخاص حرفيًا، بل إن أسرار الوجود قد انكشفت للإنسان على سبع طبقات أو سبع قوى .ويرتبط هذا العدد في الفكر القديم بعدد الكواكب السبعة المعروفة عند القدماء، وهي: الشمس، والقمر، والمريخ، وعطارد، والمشتري، والزهرة، وزحل. أما في العلم الحديث فقد أصبح عدد الكواكب أكبر من ذلك، لكن الفلسفات القديمة كانت تبني تصوراتها الرمزية على هذا العدد. ومن هنا يمكن فهم العبارة على أن الطبيعة أعطت حقائقها للإنسان عبر سبع مراتب من القوى أو القدرات، كما أن الكواكب السبعة كانت تُنسب إليها قوى مختلفة. فمثلًا كان عطارد يرمز إلى العلم والتعلم، والإنسان كذلك يمتلك قوة المعرفة. وكانت الزهرة ترمز إلى الشهوة والرغبة، وهذه القوة موجودة في الإنسان أيضًا. أما الشمس فترمز إلى العلو والسلطة والجاه، وهذه أيضًا من القوى التي قد تظهر في الإنسان. وهكذا يصبح الإنسان صورةً مصغرةً للعالم، تشترك قواه مع قوى الكواكب.

ثم يذكر النص أن هذا التناغم بين الإنسان والكواكب يأتي من النار والروح .وهنا يمكن فهم النار والروح على أنهما رمزان للقوة الإلهية أو العقل الكوني. فالنار ترمز إلى العقل أو ما يسمى في الفلسفة الهرمسية بـ النوس(Nous) ، أي العقل الإلهي الذي يدبر الكون. وهذا المفهوم أثّر في كثير من الفلاسفة، ومنهم أرسطو الذي تحدث عن المحرك الأول، وعن عقل يصدر عنه تدبير العالم. فالنص يشير إلى أن هناك قوة عقلية عليا صدرت عن الخالق الأعظم، وهي التي تنظم الكون وتدبره.

بعد ذلك يقول هرمس :لقد استبد بي شوق عظيم ورغبة شديدة لسماع المزيد، فلا تحد أو تتشعب عن الحديث .وهذه العبارة تعبر عن شوق هرمس للمعرفة ورغبته في التعمق في أسرار الوجود والعلوم الربانية. فهو لا يريد أن يتوقف عند حد معين من الفهم، بل يسعى إلى مزيد من الكشف والمعرفة. لكن بيماندرس يجيبه قائلًا :التزم الصمت، فما أنهيت بعد خطبتي الأولى .وهنا يظهر معنى مهم في الحكمة، وهو مقام الصمت .فالصمت في طريق الحكمة ليس مجرد سكوت، بل هو حالة من التلقي والتواضع أمام المعرفة.

فالإنسان الذي يسعى إلى معرفة أسرار الوجود ينبغي أن يكون في حالة استقبال، لا في حالة استعراض أو ادعاء. وكثيرًا ما نرى بعض الطلاب عندما يبدؤون في دراسة الفلسفة أو العلوم الروحية يظنون أنهم قد وصلوا إلى أسرار عظيمة، فيتباهون بما تعلموه. لكن الحكمة الحقيقية تقتضي التواضع والصمت، لأن من يتوهم أنه بلغ النهاية ينقطع عن طريق المعرفة. أما من بقي متواضعًا، فإنه يظل متعلمًا ومتقدمًا في فهمه.

ثم يشرح النص كيفية ولادة هذه القوى السبع، فيقول إن الهواء كان أنثى والماء مشتاقًا للاتحاد .ويمكن فهم هذه الرموز على أنها تعبير عن حالات مختلفة في النفس الإنسانية. فالهواء يرمز عادة إلى العقل والتحليل والاستنتاج، لكنه هنا وُصف بأنه أنثى، أي أن العقل في بداياته كان عقلًا متلقيًا أكثر منه عقلًا محللًا. فالإنسان في المراحل الأولى من وعيه يكون كالتلميذ الذي يستقبل المعرفة دون أن يمتلك بعد القدرة الكاملة على التحليل والاستنتاج.

أما الماء فيرمز إلى الحدس والتأمل والشعور القلبي .ولذلك قيل إنه مشتاق للاتحاد، أي إن القلب الإنساني يسعى إلى أن تتحول معارفه الروحية إلى معرفة ملموسة في الواقع. فالإنسان يريد أن يفهم أسرار الوجود لا بعقله فقط، بل بقلبه وشعوره أيضًا. ومن هنا جاء التعبير بأن الماء يريد أن يلتحم بالعقل، أي أن المعرفة القلبية تسعى إلى أن تتجسد في إدراك واعٍ وفهم واضح.

ويقول النص أيضًا إن الطبيعة أخذت من النار نضجها .والنار هنا ترمز إلى الإرادة والقوة والقدرة على تحقيق الأشياء في الواقع. فهي تمثل الطاقة الكونية التي تدفع الإنسان إلى الفعل والعمل. ويمكن تأويل النار أيضًا بأنها رمز للخالق، لأن النار – بما فيها من حرارة – تمثل القوة التي تبث الحياة في الكون. ولذلك يمكن فهم العبارة على أن الإنسان يستمد عزيمته وقوته من تلك الطاقة الكونية أو الإرادة الإلهية.

أما قوله ومن الأثير روحها، فيشير إلى عنصر الأثير الذي كان يُعد في الفلسفات القديمة جوهرًا لطيفًا غير مادي. ويمكن فهم الأثير هنا على أنه المعارف الروحية الخالصة التي تتجاوز العالم المادي. فالماء قد يرمز إلى معرفة المعنى الروحي للأشياء المادية، مثل التأمل في الكواكب أو الظواهر الطبيعية. أما الأثير فيرمز إلى معرفة المعنى الروحي للأشياء الروحية ذاتها، مثل التأمل في ماهية الخالق أو في طبيعة الوجود المجردة.

فإذا حاول الإنسان أن يعرف الله من خلال مظاهر خلقه في العالم، فهذه معرفة قريبة من الماء. أما إذا حاول أن يتأمل في معنى الألوهية في ذاتها، بعيدًا عن المظاهر المادية، فهذه معرفة أقرب إلى الأثير. ومن هنا يمكن القول إن الأثير يمثل مرتبة من الوعي تتجاوز العالم المادي، وتقترب من العوالم الروحية والنورانية.

ثم يقول النص إن الطبيعة أخرجت أجسادًا على هيئة البشر وصورهم، أي أن هذه القوى والعناصر المختلفة اجتمعت لتشكيل الإنسان بصورته الجسدية والعقلية والروحية. وهنا يطرح بعض الناس اعتراضًا فيقولون إن هذا التفسير لا يلتزم بالتفسير الهرمسي التقليدي للنص. والجواب أنني أتعامل مع النص بوصفه نصًا تأمليًا يثير الفكر ويحفز العقل، لا مجرد نص ينقل معلومات ثابتة. فالقراءة التأملية تسمح للإنسان بأن يسأل ويبحث ويعيد التفكير في المعاني، بدل أن يكتفي بترديد التفسيرات الموروثة دون تمحيص.

بعد ذلك ينتقل النص إلى فكرة أخرى فيقول إن الإنسان صُنع من الحياة والنور .وهذا يعني أن أصل الإنسان من العالم العلوي أو العالم الرباني، وهو عالم الحياة والنور. أما الجسد

المادي فليس سوى مظهر مؤقت، أو ما يشبه الوهم الذي تحدثت عنه بعض الفلسفات الشرقية مثل مفهوم المايا عند الحكماء الهنود. ولذلك نجد أن الإنسان بطبيعته يميل إلى الخير والكمال والبحث عن الحقيقة، لأن في داخله نزعة فطرية نحو العالم العلوي.

ويضيف النص أن الإنسان صُنع أيضًا من نفس وعقل .ويمكن فهم النفس هنا على أنها تمثل الجانب العاطفي والشهواني المرتبط بالعالم المادي، بينما يمثل العقل الجانب الفكري الذي يسعى إلى فهم الكون وكشف أسراره. وقد يُرمز للنفس بالماء، وللعقل بالهواء، وفقًا للرموز التي استُخدمت في الشرح السابق. لكن كلاهما في أصلهما يعودان إلى مصدر علوي، لأن النص يقول إن النفس من الحياة والعقل من النور .فالحياة مرتبطة بالمشاعر والحركة والتفاعل، ولذلك نُسبت إليها النفس، أما النور فمرتبط بالمعرفة والإدراك، ولذلك نُسب إليه العقل.

ثم يصل النص إلى فكرة أخرى تقول إن عناصر العالم المحسوس تستمر في الحكم والتوالد حتى نهاية الدورة .ويمكن فهم هذه العبارة بطريقتين: ظاهرية وباطنية. أما ظاهرها فيوحي بأن العالم يستمر إلى ما لا نهاية، وهو ما قال به بعض الفلاسفة مثل أرسطو وأتباعه من المشائيين. ومن هذا الفهم أيضًا ظهرت بعض الأفكار في الفلسفات الهندية التي ترى أن العالم يسير في دورات متكررة، وأن الإنسان يمر بسلسلة من الولادات المتعاقبة، وهو ما يعرف بمفهوم السمسارة.

فالإنسان – بحسب هذا التصور – يولد ثم يموت، ثم يولد مرة أخرى في جسد آخر، وتستمر هذه الدورة مرارًا حتى يتحرر من هذه السلسلة عبر أفعاله الصالحة أو وعيه الروحي. وكلما كان الإنسان أكثر تقوى ووعيًا، انتقل إلى حالة أفضل في الدورة التالية، حتى يصل في النهاية إلى الاتحاد بالمطلق.

لكن للعبارة أيضًا معنى باطني. فعلى المستوى الفكري يمكن فهم التوالد على أنه توالد الأفكار .فالأفكار تنشأ من أفكار أخرى، كما أن الأديان والفلسفات تتأثر ببعضها وتستمد من

بعضها عناصر مختلفة. وعلى المستوى الشخصي يتطور الإنسان مع مرور الزمن، فتتغير أفكاره وتتوسع رؤيته للعالم.

أما على المستوى الروحي فيمكن فهم التوالد على أنه تفاعل بين الطاقة الذكورية والطاقة الأنثوية، أي بين الفعل والاستقبال، أو بين العطاء والأخذ. وهذا التفاعل هو الذي يولد الكيانات المادية والروحية والفكرية في العالم. ومن هنا نجد أن كثيرًا من الفلسفات تحدثت عن ثنائية متقابلة مثل الخير والشر أو النور والظلام، كما في رمز اليِن واليانغ في الفلسفة الصينية، حيث يحتوي كل جانب على بذرة من الجانب الآخر.

وهذا يقودنا إلى فكرة مهمة، وهي أن الكون قائم على التوازن .فالحياة لا تستقيم بوجود طرف واحد فقط، بل تحتاج إلى تقابل وتكامل بين الأضداد. فكما أن الإنسان عندما يشعر بالحرارة يبحث عن البرودة، وعندما يشعر بالبرد يبحث عن الدفء، كذلك تقوم الحياة على نوع من التقلب الذي يعيد الأشياء إلى حالة الاعتدال.

ومن هنا يمكن تلخيص هذه المبادئ في عدة أفكار أساسية: أن التوالد يحتاج إلى ذكر وأنثى، وأن الذكر والأنثى يوجدان بسبب التقلب في الكون، وأن هذا التقلب يعيد الأشياء إلى الوسط، وأن الوسط هو أساس التوازن .ولذلك فإن التوازن يعد من أهم المبادئ التي تقوم عليها هذه التعاليم الفلسفية.

بسم الله الرحمن الرحيم

نبتدئ بعون الله إكمال الفصل الثاني من كتاب بيوماندريس الإلهي .وقد وصلنا إلى الفقرة السادسة والثلاثين، حيث يقول هرمس :*(اسمع الآن ما تبقّى)* .فيجيبه بيوماندريس :*(اسمع الآن ما تبقّى من تلك الخطبة التي اشتقتَ إليها حتى هذه اللحظة)* .في هذه العبارة نجد أن بيوماندريس يشوّق هرمس إلى بقية الخطبة، لأن هرمس يعيش تلك الحالة الشعورية والوجدانية التي يعيشها كل فيلسوف متأمل؛ وهي حالة الشوق إلى معرفة الأسرار الإلهية

والمعارف الربانية. وهذه الحالة الوجدانية تدفع الإنسان دفعًا إلى التطلع لمعرفة الحقائق العليا وأسرار الكون. وقد تحدثت عن هذه الحالة بالتفصيل في الحلقات السابقة، فمن أراد التوسع فيها فليرجع إليها.

نصل بعد ذلك إلى الفقرة السابعة والثلاثين، حيث يقول النص :*(وحين تمّ ذلك التكوّن والتوالد في الكون انفكّت رابطة كل شيء وتفككت بإرادة الله)* .والمقصود بالرابطة هنا حالة الاختلاط والغموض وعدم التميّز. فعند بداية الخلق كانت الأضداد مختلطة ببعضها: الخير والشر، والذكر والأنثى، وسائر المتقابلات. وليس المقصود بذلك الاختلاط على المستوى الجسدي أو الأخلاقي المباشر، بل على المستوى الكوني والوجودي؛ أي أن هذه المبادئ لم تكن بعد قد تمايزت أو انفصلت. فالخلق الحقيقي يحتاج إلى تمايز، والتمييز يحتاج إلى تضاد، والتضاد يحتاج إلى توازن، والتوازن يحتاج إلى نظام، والنظام لا يتحقق إلا بانفصال الأشياء عن بعضها. لذلك فإن الخلق في معناه الحقيقي لم يبدأ إلا عندما انفكّت هذه الروابط، وأصبحت الكيانات منفصلة يمكن تمييزها بعضها عن بعض.

ويؤكد النص هذا المعنى حين يقول إن جميع الكائنات الحية كانت خنثى، أي كانت تجمع في داخلها بين الذكورة والأنوثة. وليس المقصود بالخنثوية هنا المعنى الجسدي المباشر، بل المعنى الرمزي: فالذكورة ترمز إلى المبادرة والفعل والإقدام، بينما ترمز الأنوثة إلى التلقي والاستقبال. وعلى هذا الأساس يمكن أن نفهم كثيرًا من الثنائيات: فالعقل مثلًا ذو طبيعة مبادِرة، ولذلك يمكن تشبيهه بالذكورة، بينما القلب ذو طبيعة متلقية، ولذلك يشبه الأنوثة. ما دام كل شيء يجمع بين ضديه في آنٍ واحد دون تمييز، فإن التكوّن الحقيقي لا يكون قد بدأ بعد؛ لأن معرفة الشيء لا تتم إلا بتمييزه عن ضده.

ومن هنا تأتي قاعدة فلسفية مهمة :الأضداد لا تُعرف إلا بأضدادها .فالخير لا يُعرف إلا بوجود الشر، والذكر لا يُعرف إلا بوجود الأنثى، والحرارة لا تُفهم إلا إذا عرفنا البرودة. فإذا اجتمع الضدان تمامًا دون تمييز فُقدت القدرة على إدراكهما. ولهذا كانت مرحلة انفكاك

الروابط مرحلة أساسية في الخلق، لأنها سمحت بتمييز الأشياء بعضها عن بعض، وأخرجتها من حالة الامتزاج إلى حالة الاستقلال.

ولتقريب الفكرة يمكن ضرب مثال من العالم المادي. فالماء في الطب القديم يوصف بأنه بارد رطب، بينما النار حارة يابسة. ولا يمكن إدراك معنى البرودة إلا إذا اختبر الإنسان الحرارة، ولا يمكن فهم الحرارة إلا إذا عرف البرودة. وعلى المستوى الروحي يمكن أن نقول إن الماء يرمز إلى التلقي والتأني، بينما ترمز النار إلى المبادرة والإسراع. فالشخص المتأني لا يمكن أن يكون في الوقت نفسه متسرعًا، ومعرفة أحد الأمرين لا تتم إلا بتجربة الآخر. كذلك الحال في المعارف الروحية: فهناك معرفة تتجلى في التلقي الصامت والإصغاء العميق، وهناك معرفة تتجلى في المبادرة العقلية والبحث الفلسفي.

بعد ذلك يقول النص :*(ففُكّت وحرِّرت مع الإنسان أيضًا، فانفصل الذكور لأنفسهم وكذلك الإناث)* .وهنا يثور سؤال مهم: هل المقصود بالإنسان الإنسان الجسدي أم الإنسان الروحي؟ التفسير الذي أراه أعمق هو أن المقصود بالإنسان هنا الإنسان بوصفه وعيًا كونيًا؛ أي الكائن القادر على التأمل في الكون وفهم معانيه. فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتساءل عن معنى الوجود، وعن الخير والشر، وعن طبيعة الله والكون. لذلك اقترن ظهور الوعي الإنساني بتمييز الأشياء في الكون.

فعندما يقول النص إن الذكور والإناث انفصلوا، يمكن فهم ذلك على المستوى الروحي: أي أن الإنسان أصبح يسلك طريقين في المعرفة؛ طريقًا عقليًا مبادرًا يمكن تشبيهه بالطريق الذكري، وطريقًا قلبيًا متلقيًا يمكن تشبيهه بالطريق الأنثوي. وعلى الرغم من أن المعنى الظاهر قد يشير إلى الانقسام الجسدي بين الذكر والأنثى، فإن الفلسفة الهرمسية غالبًا ما تهتم بالمعنى الرمزي الباطني أكثر من المعنى الظاهر.

ومن هنا نفهم لماذا اقترنت عملية تفكك الأشياء بظهور الإنسان. فالوعي هو الذي يمنح النظام للوجود. الكون في ظاهره قد يبدو فوضويًا، لكن التأمل العميق يكشف أنه يسير وفق

نظام دقيق. ويمكن أن نتخيل الوعي وكأنه منظومة اقترنت بالكون منذ نشأته، فصارت الأشياء من خلاله منظمة ومحكومة بالقوانين.

ثم ينتقل النص إلى الفقرة الثامنة والثلاثين حيث يقول :*(وفورًا قال الله للكلمة المقدسة)* . وهنا ينبغي التوقف عند معنى كلمة الله في السياق الفلسفي. فهي تشير إلى النور المطلق، والخير المطلق، والمبدأ الأول، والخالق الأعظم، أو ما يسميه بعض الفلاسفة المهندس الأعظم .الله يمكن تعريفه من خلال علاقته بالخلق، فنقول إنه خالق الكون أو رب العالمين. أما إذا حاولنا تعريفه بذاته المجردة عن كل علاقة بالوجود، فإننا لا نجد وصفًا أدق من كلمة الباطن؛ أي الحقيقة التي لا يمكن الإحاطة بها.

أما الكلمة المقدسة فيمكن تفسيرها بأنها العقل الكوني أو الوعي الكلي الذي يسير به الكون بنظام وإحكام. فكل ما في الكون يدل على انتظام ودقة، وكأن هناك عقلًا يحكم هذا النظام. وعندما يقول النص إن الله قال للكلمة المقدسة :*(انموا بازدياد وتكاثروا بتعدد، أنتم جميع خلائقي وصنع يدي)*، فالمقصود ليس الخلق المباشر الحرفي، بل أن الله بث في الكون روحًا منظمة أو عقلًا كونيًا جعل الموجودات تسير وفق قوانين دقيقة.

بعد ذلك يضيف النص عبارة عميقة :(وليَعلم من مُنح عقلًا أنه خالد، وأن سبب الموت هو حب الجسد) .وهذه العبارة تلخص رسالة كثير من الأديان والفلسفات، وهي أن الإنسان إذا تعلّق بالمادة وحدها بقي أسير الفناء، أما إذا اتجه إلى العالم الروحي فإنه يقترب من الخلود. لذلك نجد أن الأنبياء والفلاسفة والحكماء دعوا الإنسان دائمًا إلى تهذيب النفس والتخفف من التعلّق المفرط بالمادة، حتى يستطيع التوجه نحو العالم الروحي الأعلى.

ثم يذكر النص أن العناية الإلهية نظّمت الكون عبر انسجام الخليط، أي عبر مزج الأضداد وتوازنها. فالكون قائم على التوازن بين قوى متقابلة: النور والظلمة، الخير والشر، البناء والهدم. ولو سيطرت قوة واحدة سيطرة كاملة لاختلّ النظام. فلو كانت القوة التدميرية وحدها

مسيطرة لتدمر الكون بسرعة، ولو كانت القوة المحافظة وحدها مسيطرة لما وجد الفناء، بينما نظام الكون يقوم على التوازن بين القوتين.

ومن هنا نفهم معنى العبارة النبوية المشهورة :(خير الأمور أوسطها) .فالتوازن هو أساس النظام الكوني؛ لا إفراط ولا تفريط، بل انسجام بين المتقابلات.

وأخيرًا يصل النص إلى العبارة المهمة :(أما من عرف نفسه فقد بلغ في النهاية إلى الجوهر الحقيقي للخير المطلق) .فمعرفة النفس ليست مجرد معرفة أخلاقية بعيوب الإنسان ورغباته، بل هي أيضًا معرفة روحية عميقة. فالإنسان عالم صغير يحتوي في داخله صورة مصغرة من الكون. ولذلك قيل في الشعر :*(وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر)* .فمن تأمل نفسه بعمق أدرك أن القوى الموجودة في الكون موجودة فيه أيضًا: قوى البناء والهدم، الخير والشر، النظام والفوضى.

ومن خلال هذا التأمل يصل الإنسان في النهاية إلى معرفة الخالق. وهذه المعرفة ليست اتحادًا ذاتيًا بالله —— فذلك مستحيل —— وإنما هي اتحاد في الجوهر أو في النور. أي أن الإنسان عندما يتطهّر من تعلقه بالمادة ويكتسب الصفات الروحية العليا يصبح أقرب إلى النور الإلهي، وكأن جوهره قد تشابه مع ذلك النور.

ولهذا قال النص :(بلغ في النهاية إلى الجوهر) ولم يقل بلغ إلى ذات الخالق؛ لأن الذات الإلهية متعالية لا يمكن إدراكها. أما التشابه في الجوهر الروحي فهو ما يمكن للإنسان أن يبلغه بعد سنوات طويلة من تهذيب النفس والتأمل والتعلم.

وهكذا يتضح أن الطريق إلى معرفة الحقيقة ليس طريقًا سريعًا، بل هو مسار طويل من تزكية النفس واكتساب الحكمة والتدرج في المعارف الروحية حتى يصل الإنسان في النهاية إلى إشراق النور في داخله.

المقالة 14 من شرح العلوم الهرمسية

إنَّ محو الإنسان لذاته محواً كاملاً أمرٌ مستحيل، لأنَّ الإنسان مخلوق محدود، بينما الخالق منـزَّه عن الحدود والنقصان. لذلك فالوصول إلى الخالق مباشرةً ليس أمراً يسيراً، بل هو طريق طويل يحتاج إلى تهذيب النفس وتطهيرها. فعندما يصبح الإنسان نورانياً رحمانياً، ويهذب طباعه، ويقترب من الخير المطلق، فإنه يشابه – من حيث الجوهر الروحي – جوهر الخالق، فيستمد منه الطاقة والنور. وعندئذٍ يبلغ الإنسان مرتبة القرب من الخير المطلق. ولهذا قال المؤلف إن الإنسان "بلغ في النهاية"؛ لأن الوصول إلى هذه المرتبة لا يكون دفعةً واحدة، بل بعد سنوات طويلة من المجاهدة الروحية، وتعلم العلوم السماوية والعلوم النورانية، حتى يمنحه الخالق الملكة الروحانية أو الملكة النورانية. فإذا أُعطي هذه الملكة بلغ الغاية، ومن بلغ هذه المرتبة عرف الأسرار.

ثم ينتقل النص إلى الفقرة الأربعين، حيث يقول" :وأما من أحب الجسد بسبب ضلال الحب فبقي هائماً في الظلمات، محجوباً بالإحساس، يعاني ما يجلبه الموت ".ويمكن تفسير هذه العبارة بعدة تأويلات. فالظلمات قد تُفسَّر بأنها الجهل بالمعارف الربانية والعوالم الملكوتية، وقد تُفسَّر أيضاً بأنها الشهوات والرغبات التي يغرق فيها الإنسان فلا يستطيع الخروج منها، كما يمكن تأويلها على أنها المعتقدات الخاطئة التي تجعل بعض الناس يظنون أنهم بلغوا النور، بينما هم في الحقيقة غارقون في الوهم. أما قوله "محجوباً بالإحساس "فيشير إلى العالم المادي الذي تدركه الحواس الخمس، أي أن الإنسان يصبح أسيراً لما تراه حواسه ويلامسه جسده، فينغلق عن إدراك الحقائق العليا.

ومن هنا يتضح أن الإنسان إذا فضَّل الدنيا ولذاتها، وانغمس في الرغبات والشهوات، فإن ذلك يطمس عنه المعاني الربانية. وهذا له بعدان: بعد أخلاقي وبعد روحي. فالبعد الأخلاقي يتمثل في خضوع الإنسان للشهوات والأفعال المخالفة للفطرة الإنسانية، مثل العلاقات غير المشروعة أو الانغماس في الملذات دون ضابط. أما البعد الروحي فيتمثل في أن الإنسان إذا لم يتأمل في ملكوت السماوات، ولم يتفكر في أسرار الوجود، ولم يخلع عن نفسه رداء الشهوات، فإنه يبقى غارقاً في الظلمات، محجوباً عن الحقيقة.

وقوله "يعاني ما يجلبه الموت "فسَّره بعض الباحثين بأنه يشير إلى عقيدة التناسخ. فوفق هذا التأويل، إذا لم يكن الإنسان متديناً ورعاً يسير في طريق الحكمة، فإنه يموت ثم يعود إلى حياة أخرى في جسد جديد. وهذه الفكرة قريبة من المفاهيم الهندية مثل السامسارا، أي دورة الحياة والموت، والكارما التي تعني أن

أفعال الإنسان في حياته تحدد مرتبته في الحياة التالية. فمثلاً قد يولد إنسان ملكاً، فإذا أساء استخدام سلطته وظلم الناس، فإنه في الحياة القادمة قد يولد في طبقة أدنى.

وفي هذا السياق يُذكر اسم هرمس تريسميجستوس، أي "هرمس مثلث العظمة". وقد سُمِّي بهذا الاسم لأنه جمع بين ثلاث صفات كبرى: النبوة والحكمة والملك. فكلمة "تريس" تعني ثلاثة، و"ميجستوس" تعني العظيم، أي أنه عظيم في ثلاثة مجالات.

بعد ذلك يسأل هرمس :لماذا يخطئ الجاهلون إلى هذا الحد حتى يحرموا من الخلود؟ أي لماذا يصر الناس على اتباع طريق الجهل والشهوات رغم وضوح طريق الحكمة والنور؟ وهنا يجيب بيوماندريس بأن هرمس لم يفهم ما سمعه تماماً، لأن من يتلقى الأسرار الإلهية ينبغي أن يتأمل فيها بعمق قبل أن يسأل عنها، فالأسرار لا تُعطى إلا مرة واحدة، وعلى التلميذ أن يتدبرها جيداً.

ثم يوضح بيوماندريس سبب الموت قائلاً إن أمام الجسد ظلاماً حزيناً وكئيباً، ومن هذا الظلام تنبع الطبيعة الرطبة، ومنها يتكون الجسد في العالم المحسوس، ومنها ينبثق الموت. والمقصود بالجسد هنا ليس الجسد المادي فحسب، بل أيضاً الرغبات والشهوات والدنيا التي تحجب الإنسان عن العوالم الربانية. أما الطبيعة الرطبة فهي رمز للوهم، لأن الرطوبة أو الضباب تحجب الرؤية وتجعلها غير واضحة، وكذلك الوهم يحجب الإنسان عن الحقيقة ويجعله يعتقد معتقدات خاطئة عن نفسه وعن الكون.

ومن هنا يرى بعض الهرامسة أن العقل وحده ليس كافياً للوصول إلى الحقيقة المطلقة، لأن العقل قد يخطئ كثيراً، ولأنه مرتبط بالجسد وبالحواس. ولهذا يعتقد بعضهم أن الاعتماد على العقل المجرد وحده قد يبعد الإنسان عن الحقيقة بدلاً من أن يقربه منها.

ثم ينتقل النص إلى مسألة معرفة النفس، حيث يسأل هرمس: كيف ينتقل من عرف نفسه إلى معرفة الله؟ والجواب أن الإنسان صورة مصغرة من الكون. فكما أن الكون الكبير يحمل صفات معينة، فإن الإنسان يحمل في داخله انعكاساً لهذه الصفات. فالخير والعلم والرحمة التي نراها في العالم الإلهي لها نظير في طبيعة الإنسان. ولذلك فإن معرفة النفس هي طريق لمعرفة الخالق.

ويضيف النص أن الله وضع الفطرة في الإنسان، وهذه الفطرة تدفعه نحو الخير. فالكون قائم على النظام والخير، وليس على الفوضى والشر. ولو كان الشر هو الغالب لما استمر الكون. ولهذا يمكن القول إن

العالم يقوم على نسبة كبيرة من النظام والخير، في مقابل نسبة أقل من الفوضى والشر، لأن التوازن بين هذين العنصرين ضروري لاستمرار الوجود.

كما يشير النص إلى أن الطرق إلى الله متعددة، فبعض الناس يصلون إليه عبر التأمل، وبعضهم عبر الدراسة والتفكر، وبعضهم عبر الطقوس والشعائر. وقد عبّر الحكماء الهنود عن هذه الفكرة بما يسمونه المسارات الأربعة لليوغا، مثل بهاكتي يوغا، وراجا يوغا، وكارما يوغا، وغيرها، حيث يرون أن لكل إنسان طريقته الخاصة في السعي نحو الحقيقة.

ثم يؤكد النص أن الله يعين أولياءه وأهل الحكمة، فيغلق عليهم أبواب الشر ويفتح لهم أبواب الخير، ويقربهم من المعرفة الربانية. وهؤلاء الناس يتحركون بدافع الميل الفطري الذي وضعه الله في الإنسان، وهو الميل الذي يجعله يميز بين الخير والشر، ويدفعه نحو السمو الروحي.

أما الذين يغرقون في الشهوات والرغبات، فإنهم يظلون في صراع دائم، لأن رغباتهم لا تشبع. وهؤلاء يصبحون أقرب إلى طريق الظلمة، حيث تتسلط عليهم الأهواء والوساوس. ولهذا يحذر النص من الانغماس في العلوم التي تقوم على استحضار الشياطين أو إيذاء الآخرين، مثل بعض فروع ما يسمى بعلم الأوكولت أو علوم السحر والشعوذة، لأن هذه الممارسات تقوم على طقوس مظلمة تناقض الفطرة الإنسانية السليمة.

وفي النهاية يوضح النص أن الفلسفة والدين يشتركان في موضوعات كثيرة، مثل البحث في الله والفضيلة والخير والشر. غير أن الدين غالباً ما يخاطب الإنسان بلغة الأمر والنهي، بينما تميل الفلسفة إلى القول إن الإنسان ينبغي أن يسعى إلى الخير لأن الخير في ذاته هو الغاية العليا، لا مجرد وسيلة للوصول إلى مكافأة أو النجاة من عقاب.

المقالة 15 من شرح العلوم الهرمسية

بسم الله الرحمن الرحيم، نبدأ بعون الله إكمال الفصل الثاني من الكتاب الأول من كتاب بيماندرس الإلهي .كنا في الدرس السابقة قد تحدثنا عن علم الـ Occult، وبيّنا أن هذا العلم في كثير من صوره علم خطير ينبغي الحذر منه. ومع ذلك ينبغي التنبيه إلى ملاحظة مهمة، وهي أن هذا العلم ليس كله شرًا أو شيطانيًا كما يتصور البعض. فهناك بعض الكتب التي تتناول هذا المجال من زاوية فكرية أو فلسفية أو تاريخية، مثل كتاب "The Secret Teachings of All Ages" لمانلي بالمر هول، وهو كتاب بحثي وفلسفي يعرض التراث الرمزي والباطني بطريقة تحليلية وفكرية، وليس كتابًا يدعو إلى ممارسة أعمال سحرية أو طقوس خطرة. في المقابل توجد كتب أخرى ينبغي الحذر الشديد منها، مثل "The Key of Solomon" أو غيره من الكتب التي تتعلق بطقوس السحر والتعامل مع القوى الخفية، فهذه الكتب قد تقود الإنسان إلى مسالك شريرة. وأنا لا أحذر منها لأنها محرمة فقط أو لأن بعض الشيوخ قالوا ذلك، بل لأن الشر بطبيعته ينعكس على صاحبه. فمن يسلك طريق الشر فإن هذا الشر سيعود عليه في المستقبل بصورة أو بأخرى، فكما أن من يؤذي الناس غالبًا ما يُسلَّط عليه من يؤذيه، كذلك من يسلك طريقًا فاسدًا أو ظالمًا فإنه سيجني ثمار هذا الطريق في النهاية.

وقد وصلنا في الشرح إلى الفقرة (58)، حيث يسأل هرمس العقل الإلهي، أي بيماندرس، قائلًا: لقد علمتني أيها العقل أحسن تعليم كما رغبت، ولكن أخبرني أيضًا ماذا يحدث بعد العودة؟ أي ماذا يحدث للإنسان عندما يرجع إلى العالم الرباني ويصعد إلى الله؟ فيجيبه العقل الإلهي بأن أول ما يحدث هو تحلل الجسد المادي، إذ يتجرد الإنسان من طبيعته المادية. فالإنسان في هذه الدنيا مكوَّن من عنصرين: جسد وروح. الروح ذات طبيعة نورانية خيّرة، أما الجسد فمرتبط بالعالم المادي وما فيه من رغبات وشهوات. وعندما يصعد الإنسان إلى

العالم العلوي فإنه يخلع عن نفسه هذه الطبيعة المادية الظلمانية ويتمسك فقط بطبيعته الروحية النورانية.

وعند هذه المرحلة يحدث نوع من التشابه في الجوهر بين الإنسان والخالق، لا بمعنى أن الإنسان يصبح هو الله أو يتحد به اتحادًا حقيقيًا، بل بمعنى أن الجوهر الروحي للإنسان يقترب من الجوهر الإلهي من حيث الصفاء والخير. فالإنسان يتخلص من صفاته الدنيوية ويبدأ بالتحول نحو الطبيعة النورانية الخيرة. كما أن الجسد يسلم ذاته للتغير والتحلل، وتعود القوى التي كانت فيه إلى مصادرها الكونية، حيث ترتبط هذه القوى في الفلسفة الهرمسية بالقوى السبعة المرتبطة بالكواكب السبعة. وتصبح هيئة الإنسان غير مرئية، لأن العالم العلوي عالم روحاني غير مادي، وبالتالي فإن الكائن الذي يدخل هذا العالم لا يكون جسديًا بل روحانيًا.

وفي هذا السياق تترك الطبائع الباطلة للشيطان، أي أن الأخلاق السيئة والرغبات المادية التي كانت تسيطر على الإنسان في حياته الأولى يخلعها عنه ويتركها وراءه. كما تعود الحواس الجسدية إلى أصولها بعد تحلل الجسد، بينما يذهب الغضب والشهوة إلى الطبيعة الحيوانية غير العاقلة، لأنهما أقرب ما يكون إلى الجانب الحيواني في الإنسان. فلو تأملنا في سلوك الحيوان لرأينا أن أبرز ما يحكمه هما الغضب والرغبة، ولذلك ينبغي على الإنسان أن يقلل منهما قدر الإمكان.

ويمكن للإنسان أن يتعلم كيفية ضبط الغضب من خلال تغيير نظرته إلى الناس. فإذا أساء إليه شخص ما، فبدل أن يغضب يمكنه أن ينظر إلى هذا الشخص على أنه لا يزال في مستوى الطفولة العقلية، حتى لو كان كبيرًا في السن. فكثير من الناس يبلغون الثلاثين أو الأربعين من العمر ومع ذلك يتصرفون تصرفات طفولية، يصرخون ويغضبون لأتفه الأسباب. ومثل هؤلاء لا ينبغي أن يعاملوا معاملة العقلاء، بل ينبغي أن ينظر إليهم كما يُنظر إلى الطفل الصغير الذي لا يملك بعد الحكمة أو رجاحة العقل. ولهذا فإن الإنسان غالبًا ما يغضب لأنه

يمنح الآخرين قيمة كبيرة في نفسه، فيظن أن إساءتهم إليه أمر خطير يمس كرامته، بينما لو أدرك أنهم غير ناضجين فكريًا فلن يولي كلامهم أهمية.

أما بالنسبة للرغبات، فيمكن للإنسان أن يخفف من سلطانها عليه بالتأمل في طبيعتها الحيوانية. فإذا تخيل الإنسان نفسه وهو يمارس هذه الرغبات فإنه يدرك أنه في تلك اللحظة قريب جدًا من عالم الحيوان، فيشعر بنوع من الحياء من نفسه. ومع ذلك ينبغي التنبيه إلى أن الرغبة في أصلها ليست شرًا مطلقًا، لأنها وضعت في الإنسان من أجل استمرار النوع البشري وعمارة الأرض. ولكن المشكلة تكمن في الإفراط فيها وتحولها إلى مركز حياة الإنسان.

ثم ينتقل النص بعد ذلك إلى الحديث عن صعود قوى الإنسان المختلفة إلى مراتبها العليا، فيشبه ذلك بما ورد في الأدبيات الدينية عن السماوات السبع .فكما ورد في قصة الإسراء والمعراج أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد من سماء إلى سماء، وكل سماء لها مقامها وساكنوها، كذلك تصعد قوى الإنسان بعد الموت إلى مستويات مختلفة. فالقوة المرتبطة بالنمو والتغير تعود إلى مستوى معين، والقوى المرتبطة بالخداع أو الرغبات تعود إلى مستويات أخرى، حتى تصل الروح في النهاية إلى المرتبة العليا.

وهنا تظهر أهمية العدد سبعة في التراث الديني والفلسفي. فالسبعة رقم له حضور واسع في الإسلام واليهودية والمذاهب الفلسفية القديمة، ويرتبط بالكواكب السبعة وبالسماوات السبع. ومن الناحية الرمزية يعد هذا الرقم رقمًا كاملاً، لأن جمع الأعداد من واحد إلى سبعة يعطينا العدد 28، وهو عدد منازل القمر. وإذا جمعنا 2 + 8 نحصل على 10، وهو عدد يمثل اكتمال الدورة العددية، لأن ما بعده يصبح تكرارًا للأرقام الأولى.

وبعد أن تتجرد الروح من جميع العمليات المرتبطة بالعالم المادي، تصعد إلى ما يسمى الطبيعة الثامنة، حيث تشارك الكائنات الروحانية الأخرى في تسبيح الخالق. وفي هذه الحالة تدخل الروح في مقام من النور والسكينة، وتصبح جزءًا من العالم العلوي، وتشعر بالقرب

من الجوهر الإلهي. وهنا يتحقق الخير الأعلى الذي يسعى إليه العارفون، وهو أن يكون الخير مطلوبًا لذاته لا لغاية أخرى.

وهذه نقطة مهمة، إذ إن بعض الناس يفعلون الخير من أجل الحصول على مكافأة مادية أو دنيوية، أو حتى من أجل نيل النعيم في الجنة. بينما يرى بعض الفلاسفة أن الخير ينبغي أن يُطلب لأنه خير في ذاته، لا لأنه وسيلة إلى منفعة أخرى. فإذا كان الإنسان يفعل الخير فقط طمعًا في المكافأة، فإنه لا يختلف كثيرًا عن الشخص الذي يسعى وراء اللذات المادية، لأن الدافع في الحالتين هو الطمع.

وفي ختام هذه الفقرات ينتقل هرمس إلى شكر الخالق والعقل الإلهي الذي كشف له هذه الأسرار. وهذا هو حال كل من يسلك طريق الحكمة، إذ ينبغي عليه أن يشكر الله لأنه فتح له باب المعرفة. وليس الشكر مجرد كلمات تقال باللسان، بل هو التزام عملي، يتمثل في الابتعاد عن الشرور، والتأمل في الكون، والسعي إلى معرفة أسرار الوجود. فالفلسفة هنا ليست مجرد تفكير نظري، بل هي طريق أخلاقي وروحي يهدف إلى تهذيب النفس وتوجيهها نحو الخير والنور.

المقالة 16 من شرح العلوم الهرمسية

تحتل الأسئلة الوجودية والفلسفية والدينية لدى الإنسان مركزًا مهمًا منذ بدء الخليقة، فالإنسان بطبعه يحب التعرف على المسائل المجهولة والغامضة، كما يحب استكشافها والتبحر فيها؛ لعله يطفأ ضمىء البحث في هذه المسائل، متأملًا بذلك أن يكتشف أسرار الكون ويعلم أموره المختلفة.

ولهذا الأمر، قام الإنسان بابتكار الآراء والمدارس والأفكار الدينية والفكرية المختلفة؛ بحيث يشدو أن يجيب عن الأسئلة الكبرى التي أرقت باله منذ قديم الزمان، ومن بين هذه المدارس هي المدرسة الهرمسية، والتي حاولت أن تعطي إجابات عن الأسئلة المعقدة والمركبة، فأبدعت بذلك أيما إبداع.

وهي بنظري قد أبدعت إبداعًا شديدًا في الجواب على هذه القضايا المعقدة؛ وذلك لإنها قد اتبعت طريقة القلب في حل المسائل القديمة، تلك الطريقة التي أؤمن بها كثيرًا، والتي تقوم على إعمال القلب ورؤية الأمور من الجانب العاطفي الإنساني لا من الجانب العقلاني الجاف

وقبل البداية بالحديث عن الهرمسية، يجب أن نتحدث قليلًا عن هرمس، وهو الذي على اسمه سُميَت مدرسته بهذا الاسم.

فهرمس، لو بحثنا بالانترنت، لوجدنا أنه شخصية تاريخية قديمة تكتنفها الغموض أكثر مما يجتليها الوضوح، إذ يتنازع على تعريفها وتحديد هويتها الأكاديميون كثيرًا، ولكن، ليس لنا شأن بالأكاديميين؛ ذلك أنهم كثيري التخبط وهم إلى الجهل أقرب منهم إلى المعرفة، ولذلك سنعمل على استقصاء سر شخصيته بالأسطر التالية.

يقول البعض، أن هرمس شخصية مصرية، وأن كلمة (الأهرامات) مشتقة من اسمه؛ إذ تشترك معه في كلمة (هرم)، والحق أن هذا الأمر مغلوط، ذلك أن كلمة (الأهرامات) من جذر

(هرم)؛ وهي كلمة عربية، أما كلمة (هرمس) فهي على الأقل ليست بعربية، ولذلك، تُعتَبر الكلمتان مختلفتان وغير متوافقتان من ناحية الجذر اللغوي واللغة اللاتي تنتميان إليها.

أما الادعاء بأنه مصري قديم، فهي لإنه بمصر القديمة كان هنالك من يسمى بـ(تحوت) وهو إله الكتابة في مصر، وقد ربطوا تحوت هذا بهرمس؛ لإن هرمس حسب التاريخ هو أول من خط بالكتابة، ولكن هذا الادعاء لا يصح؛ لإنه يوجد بالحضارات الأخرى من خط بالقلم، فالفرس تدعي أنه أجهبند، والصابئة المندائيون يدعون أنه دنانوخت، والروم يدعون أنه ميركوري، واليهود تدعي أنه أخنوخ، والمسلمون يدعون أنه إدريس، فلكل حضارة رجلها الذي يدعون أنه خط الكتابة لأول مرة، فلما يكون هرمس هو تحوت ولا يكون مثلًا دنانوخت؟

ومع أني أذهب وبرأيي الخاص إلى أن هرمس، يعد (أركتايب/ نمط شخصية) تاريخي، وليس عبارة عن شخص؛ إذ أنه كما كان يوجد بكل حضارة الحاكم الذي يأمر، ويوجد الحداد الذي يصنع السيوف، ويوجد المعلم الذي يعلم، فكذلك كان هنالك الشخص الذي يخط بالكتابة والذي يعطي العلوم والمعارف لأتباعه، وهذا الشخص اصطلح عليه اليونانيون (هرمس)، وحاول الكثير اكتشافه وربطه مع شخصيات تاريخية مختلفة، ولكنه هو ليس بشخصية محددة بقدر ما هو نمط شخصية تنطبق على الكثير من الأشخاص في الحضارات المختلفة.

وأني لأرجح أن لفظة (هرمس) هي لفظة يونانية أو مصرية قديمة؛ لإن اليونانيون هم من كانوا ينهون الأسماء بحرفي (يس) كما في "هرميس"، وأيضًا يفعل المصريون القدماء ذلك، وأرجح أن اليونانيون والإغريق قد أخذوا هذه الشخصية عن غيرهم ثم صاغوها بلغتهم.

يعني، ما أقصده ها هنا هو أن الأسطورة تتنقل من بلد لآخر، فكل بلد يكسي هذه الأسطورة رداءه الخاص ويجعلها تخضع لثقافته المتميزة عن غيرها من الثقافات، فتلبس الأسطورة رداء هذه الثقافة ويتسمى أشخاصها بأسماء ثقافية تخص هذه الثقافة وتصبح أفعالهم موافقة لهذه الثقافة وغير ذلك من الأمور.

والهرمسية بدورها هي مجموع أفكار تعد مختلطة من ناحية الدين والـ occult والأسطورة والخيمياء..الخ، فإذا أتينا لتعريف الهرمسية لن نستطع أن نضعها تحت فرع واحد من الدراسات، ذلك أن مواضيعها تتفرع وهي من المواضيع البينية[1]؛ ولذلك، من الأفضل الاكتفاء بوصفها بكلمة "تيار فكري"؛ كدلالة على أنها تجمع بين مختلف المواضيع.

أما السبب في كونها تجمع مختلف المواضيع، فهي أنه تعاقب على شرحها وتوضيحها أناسٌ من مختلف الخلفيات العلمية، فمرة ترى هرمس يُذكَر بكتب السحرة، ومرة تراه يُذكَر بكتب المنجمين، وحينا أُخر تراه في كتب الفلاسفة، وهكذا.. فلا يوجد طيف واحد يجمع الهرمسية؛ ولعل ذلك من مميزاتها كما من سلبياتها، فقديمًا، كانت الفلسفة تندرج تحتها الكثير من المواضيع، كالكيمياء والطب والأخلاق والفلك وغير ذلك، ولذلك، كانت متشعبة ومتنوعة، وهي للسبب ذاته سُميَت بـ(أم العلوم).

ولذلك، فلا يوجد تعريف موحد للهرمسية، ولكن ومع ذلك فإني سأضع لها تعريفًا محاولًا بذلك توضيحها وجعلها سهلة التناول للقارىء الحديث، فإن أتينا لتعريفها عرفناها بأنها:" تيارٌ فكريٌ يعمل على الغور في بواطن الأمور المختلفة، متبعةً بذلك الإخفاء والكتمان عن العامة"، فهي:

1. **تيار فكري: لإنها تتناول مختلف المواضيع**
2. **تسبر الأغوار: لإنها تتناول مواضيع بتعمق بليغ، وإن كانت أحيانًا موجزة في العبارات.**
3. **متخفية عن العامة: وذلك لإن المواضيع التي تتناولها الهرمسية ممنوعة دينيًا أو أنها تثير الجدل عادةً، ولذلك فضل الكثير من شراحها التخفي تحت اسم مستعار أو الابتعاد عن نظر العامة.**

ومما يجدر قوله، بأن الهرمسية أثرت على الكثير من التيارات الفكرية والفلسفية والدينية في العصور الوسطى، فمن ناحية المسلمين ظهر تأثيرها في علم الخيمياء والفلك والفلسفة والأديان، فكان المشتغل بهذه العلوم يقرأ عن هرمس ويطلع عليه ويعرفه جيدًا؛ لإن تعاليم هرمس كانت تعاليمًا منتشرة بكافة العلوم، للأسباب التي عرضناها سابقًا.

والهرمسية كتيار فلسفي (لا كتيار خيميائي/ فلكي)، تعمل على فكرة وحدة الوجود، إذ يتوحد وجود الإنسان مع الله من خلال العبادات والكشف القلبي، وهي بذلك الحال تشابه الأفلاطونية والمتصوفة والكابالية وغيرها من المذاهب القلبية التي تتبع القلب في الطريق الإلهي.

وينبغي إذ وصلنا لهذه النقطة أن نعرج على موطن هرمس، فبنظري، هرمس كشخص لا بد من أن يكون له موطن، وموطنه حسب نظري هو اليونان القديمة وضواحيها؛ ذلك أن أفكاره كلها تتوافق مع الفلسفة اليونانية والفكر الإغريقي القديم، ولذلك، أرجح أن يكون هرمس يونانيًا لا مصريًا أو بابليًا.

وتوجد الكثير من الكتب التي تتناول المواضيع الهرمسية، فمثلًا، كتاب (بيوماندريس الإلهي) وكتاب (هرمس الأعظم) وكتاب (كوربوس هيرميتيكوم) وكتاب (اللوح الزمردي) وكتاب (متون هرمس- حكمة الفراعنة المفقودة)، كلها كتب تتناول الهرمسية بشكل موسع، ولكن أكثر كتاب مفصلي من بين هذه الكتب هو كتاب (بيوماندريس الإلهي) لمؤلفه جون إيفرارد، إذ يبحث هذا الكتاب في مفاهيم مثل الله/ الخير/ الشر/ الوجود/ الكون، وغير تلك من المفاهيم.

كما أن هذا الكتاب هو عبارة عن مجموعة مخاطبات موجهة من هرمس لابنه، تات أو تحوت، كما أنها موجهة لتلميذه أسكليبوس، والذي يُعتَقَد أنه حكيم من الحكماء أسس علم الطب وعمل على تطويره في الحضارة القديمة، وبالعموم، يأتي الكتاب بصيغة دعوية وعظية تخلط ما بين الفلسفة والدين، وتعمل على إرساء أفكار وآراء في الأمور الكونية

والمسائل المعقدة المركبة، كما أن هذا الكتاب وكافة الكتب الهرمسية الأخرى تعمل على وعظ القارىء من الناحية الأخلاقية والتأملية إذكاءً لقريحته الذهنية.

المقالة 17 في الفلسفة الهرمسية

طبعًا، تحدثت في المقالة السابقة عن الهرمسية، وأفردت بابًا لتقصي شخصية هرمس ولمعرفة من يكون ولاستكشاف ماهيته، كما أفردت بابًا خاصًا في المقالة السابقة لأتحدث عن أهم الكتب التي تناولت الهرمسية مثل كتاب (بيوماندريس الإلهي the divine pyamnder)، اليوم، وفي هذا المقال، سأفرد كلامًا بخصوص جزئية رأيتها في كتاب (متون هرمس- حكمة الفراعنة المفقودة)، وهي الجزئية التالية

فبهذا النص، يتحدث هرمس عن الله، وقد أستعمل المترجم كلمة (أتوم) بدلًا من الله؛ لإنه يرى أن الهرمسية ثقافة مصرية قديمة، ففضل استخدام هذه الكلمة، لكن بمقالي سأستعمل لفظة (الله) أو (الخالق) بدلًا من أتوم.

فهرمس يقول أن أتوم هو الأول، وهذا المعنى يحمل عدة مستويات أو طبقات، منها:

1. أن الله هو الخالق: بمعنى أنه هو من خلق هذا الكون وأتى به وأوجده حتى يصير مرئيًا محسوسًا.

ويتأتى من ذلك بالضرورة أن الله هو أحد واحد، لم يوجد معه أحد في خلق الكون، فهذه نتيجة ضرورية ومهمة؛ ذلك أن الأمم الأخرى تشرك مع الخالق أشخاصًا أوجدوا الكون، ولكن، في الإسلام كما هو معروف فإن التوحيد هو الأساس

2. أن هنالك عملية تبادلية: فمعنى ذلك أن الله ينعكس على الكون، والكون ينعكس على الإنسان، والإنسان بدوره يستمد انعكاسه هذا من الكون الذي يستمد انعكاسه هو أيضًا من الخالق، فكأن هنالك مسارين، أحدهما من الخالق إلى الإنسان، وثانيهما من الإنسان إلى الخالق، وهذا يكشف لنا عن أن الإنسان صورة للخالق، والخالق صورة للإنسان، وليس معنى ذلك أن جزءً من الله موجود بالإنسان، ولا أن جزء من الإنسان موجود بالخالق، فالاثنان ظاهرتان منفصلتان مختلفتان ليس لهما علاقة ببعض، ولكن، ومن ناحية الإبداع

والإيجاد، نجد أن وجود الخالق يشير بالضرورة إلى وجود الإنسان، وأن وجود الإنسان يشير بالضرورة إلى وجود الخالق.

وهذا هو معنى الحديث النبوي الشريف: "خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ"، فالإنسان لا يُتصور وجوده دون خالق، فهذا محال صعب، وكذا الخالق لا يتصور وجوده دون الإنسان والخلق والكون؛ وهذا جلي، ذلك أن كل صفات الخالق مثل الرحمة والغضب والجبروت وغير ذلك متعلقة بالكون أو الإنسان، فالرحمة متعلقة بالإنسان، كما أن الغضب متعلق بأعمال الإنسان، والبرء متعلق بالخلق والكون... وهكذا لباقي الصفات.

وبالتالي، لا يمكن معرفة الخالق دون الاستناد إلى خلقه في معرفته، ولا يمكن معرفة الإنسان دون معرفة أصله، واقتضاء معرفة أصله يُلزِم بمعرفة خالقه؛ لإن الإنسان يعود إلى خالقه من ناحية الخلق والإيجاد والحياة، وهذا معنى قوله تعالى:" ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ"، فالإنسان مهما طال أمره مرجعه إلى خالقه، إذ لا بد من ذلك، وهذا الرجوع يكون بالحياة الدنيا من خلال التفكر ومن خلال التدبر في أمر الله تعالى وفي أمر الكون والخلق، وهذا ما عبّر عنه الله تعالى بقوله:" كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ".

وبالتالي، وجب على الإنسان التدبر والتذكر، ووجب عليه أن يكون من أولي الألباب، وإلا ما فائدة معرفته وعقله وعلمه؟، وتختلف طرق التدبر من شخص لآخر[1]، فقد تكون قلبية، وقد تكون عقلية، وقد تكون من خلال التأمل، إلا أنه بالعموم وبرأيي الشخصي المتواضع، فإني اعترض على التدبر الذي به تعصب لدين معين، إذ أنه من خلال قراءاتي البسيطة، رأيت أن الله في كل دين موجود[2]، وأنه يكشف عن نفسه ولا يبطن أو يتخفى.

وذلك على عكس ما تروج له التيارات والجماعات الباطنية occultist groups، فأنا أعارض آرائهم بخصوص طبيعة الله وطبيعة الكون، كما أعارض طبيعتهم الاستعلائية بخصوص المعرفة؛ بادعائهم أن المعرفة يجب أن تكون محصورة في نخبة معينة فقط من

البشر دون الآخرين، فأنا، وعلى العكس من ذلك، أرى أن المعرفة يجب أن تتاح لكل البشر، وأن المعرفة أساسية ومهمة للكل، وأن الكل له حق الوصول للمعرفة.

وبالعموم، نرجع لمفهوم الله، فالله ظاهر بكل الأديان، غير باطن ولا متخفي، إنما طريق الوصول إليه سهلة وغير معقدة؛ وذلك بالتدبر والتأمل ورؤية الكون، فإذا الإنسان تأمل وتدبر في هذا الكون استطاع جرّاء ذلك أن يكتشف الله بكل سهولة ويسر دون أدنى صعاب.

أما بالنسبة لما يعترض البعض من صعوبة في اكتشاف أسرار الله وعدم معرفة كنهه وماهيته، فهذا لإنهم لم يعملوا قلوبهم بالشكل الكافي، ولإنهم قد حكموا عقولهم في أمر لا يُحكَم فيه العقل الجاف المنطقي العقلاني المجرد، إنما تحكم به البصيرة الكونية القلبية؛ إذ يوجد فرق ما بين البصيرة وما بين العقل الجاف، فالعقل الجاف[3] لا ينفع في معرفة سر الله؛ لإن كنه هذا العقل لا يتعدى الأمور المادية المجردة، أما البصيرة الكونية فقد أعطاها الله لكل شخص فينا لكي يستطيع اكتشافه ومعرفته، وبها نصل إلى الله، وهو ما أطلق عليه النبي (ص) الفطرة بالحديث التالي: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة".

فالفطرة ها هنا المقصود بها هو الرغبة الطبيعية في اكتشاف الخالق وتقصي أموره وصفاته، وهي موجودة بكل إنسان؛ والدليل على ذلك أن الإنسان بمختلف أعراقه دائمًا ما كان يسعى لاكتشاف الخالق، ولا أدل على ذلك من أنه ظهرت ديانات بكل زمان ومكان، وظهرت طوائف دينية وفلسفية بكل مكان وزمان، ولذلك، فالإنسان مكلف بأن يعرف الخالق، وهذا التكليف تكليف على قدر استطاعة الإنسان، وفي هذا عبّر الله عن هذا المعنى بقوله تعالى:" لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ"، فالنفس الإنسانية مكلفة باستكشاف سر عوالم الملكوت بالقدر الذي تقدر عليه، وإلا فما الفرق بين الحيوان وما بين الإنسان إن لم يسعَ الإنسان للتحرر من أهواءه الحيوانية والالتحاق بركب العوالم النورانية الرحمانية.

وفي هذا هنالك مذاهب عديدة بخصوص استكشاف الخالق، وكلها تنفع، فما دام الهدف عند الإنسان هو استكشاف الخالق فإن الله سيمهد له الطريق لاستكشاف ذلك، فهنالك مثلًا على سبيل المثال لا الحصر:

1. **الطريقة المسيحية**
2. **الطريقة الإسلامية**
3. **الطريقة الفلسفية**
4. **الطريقة الغنوصية**
5. **الطريقة الهرمسية**

وغيرها من الطرق الكثيرة التي من الممكن أن توصل إلى الله بأقرب وسيلة ممكنة.

وها هنا، وفي هذا المقام، يجب علي أن أفرد آية ربانية تنص على أن الدين عند الله الإسلام، وهي الآية رقم 19 من سورة آل عمران من القرآن الكريم، إذ تنص هذه الآية على:" إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ"، فقد يقول البعض أن هذه الآية تمنع من اتباع طريق آخر غير الإسلام، وقولهم هذا صحيح ولا اعترض عليه، لكن ماذا إذ قلت أن الطرق التي ذكرتها فوق في الفقرة السابقة تتفق مع الإسلام في الغاية والوسيلة، وتحث على الخير وتكره الشر والفجور وترنو إلى معرفة الخالق بأكثر الطرق خشوعًا وتقوى، فبالتأكيد، إن من قرأ عن هذه الفرق والطوائف سيعرف أنها تتفق مع الإسلام لدرجة كبيرة، لذلك لا بأس من اتباعها والقراءة فيها.

وقد يقول البعض أن عقيدة هذه الفرق تختلف مع عقيدة الإسلام، وهذا قول ظاهره صحيح باطنه خاطئ؛ ذلك أنك تستطيع بالعقل المجرد أن ترى أن هذا الفرق توحد الله وتعمل على الوصول إلى تقوى الله.

وفي نهاية هذا المقال، أقول أن الله في كتابه الكريم قد قال:" يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ "، فهنا، الله لم يقل (يؤتي الحكمة المسلمين)، بل قال (من يشاء) ولفظة "من" تشمل كافة الأمم والفرق، فيكون الحق موجودًا عند كافة الأمم والفرق.

وللتمييز بين الحق والباطل، أعطيك أيها القارىء الكريم طريقة بسيطة سهلة لذلك، فإذا رأيت فرقة ما، انظر إلى هالاتهم، واستشعر طاقاتهم، فإذا كان يغلب على قلبك النفور منهم، أو تشعر بشعور يجعلك تبتعد عنهم ويثقل على فؤادك أمرهم، حينها اعلم أنهم على الطريق الخاطىء، والعكس صحيح، ففي حال رأيت فرقة وانشرح قلبك لهم، فاعلم أنهم على طريق الحق.